د. حسن البندارى

أمواج الفردوس

قصص قصيرة



مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد - القاهرة

اسم الكتاب : **أمواج الفردوس (قصص قصيرة)**

اسم المؤلف : **د. حسن البندارى**

اسم الناشر: **مكتبة الأنجلو المصرية**

اسم الطابع: **مطبعة محمد عبد الكريم حسان**

رقم الإيداع : **١٠٦٦٠ / ٢٠٠٥**

الترقيم الدولي : I.S.B.N 977 - 05 - 2145 - 0

أمواج الفردوس

قصص قصيرة

أمواج الفردوس



أمواج الفردوس

تولــى مديــر جديد "إدارة الشئون الفنية" بالوزارة، فانشرحت صدور كثير من المراقبين. كان من الضروري أن يــرحل عــباس الزغبــي ليتولــى الإدارة نائبه "السيد الرفاعــي" الــذي أصــدر قرارات عديدة من بينها: قرار طــريف يدعــو إلى تنظيم معرض حرّ للفن التشكيلي في أوســع ميدان بالمدينة .. ميدان الفردوس. ترك القرار لكل فنان مشارك في المعرض حرية اختيار المكان الذي يرغبه لرسم لوحاته وعرضها فوق رصيف المشاة الدائري.

عــرفت الخبر الطريف عن طريق إعلان في "نقابة الفــنون التشكيلية". شعرت براحة عميقة وامتلأتُ بالتفاؤل. قلــت فــي نفســي: هذه فرصة تسنح لي أخيراً لاستئناف

عــرض لوحاتــي المعبــرة عن أفكار وآراء سبق للمدير الجديــد أن أبدى إعجابه بها حين كان نائبا لمدير الإدارة. كــم غمرني "الرفاعي" بالثناء والإشادة بأفكاري ومهاراتي الفنــية. ولكــنه عجــز عن حمايتي عندما تعرضت لإيذاء الحظــر والــتجاهل، وحجْز لوحاتي في سراديب بالوزارة فشــلتُ في تحريرها طوال تسع سنوات .. أصدر "عباس الزغبــي" توصــية جهنمــية"، فأوصد مسئولو المعارض الرسمية والخاصة الأبواب في وجهي. عاندتُ فتوالت رغم الحصـــار والحظر أعمالي. غطت جميع جدران منزلي.. كــان نائــبه السيد الرفاعي يطيّب خاطري ويساندني كلما شاهد لوحاتي، أو حين أشكو له تعسف الزغبي وجبروته.

هاهــو قــرار المديــر الجديد ينصفني كما أنصف أمثالــي، ومــا عليّ إلاّ أن استبشر بعهد الرفاعي النابض بالمحــبة، والمرســى لعدل أتوقع أن يفرج به عن أعمالي الســجينة التــي شــهد لها نخبة من الفنانين الكبار يوم أن عرضتُها منذ تسع سنوات ...

اتخذت مكاني فوق الرصيف. نصبت "حامل الرسم" تتوسطه لوحة غير مكتملة. أمسكت "بالتّة" الألوان وجعلت أكمل اللوحة التي بدأتها بمرسم منزلي مساء أمس. رغبت أن أضيفها إلى لوحاتي التسع المختارة التي احضرتها معي صباح اليوم تحملها حوامل قصيرة في المكان المخصص لي. أردتُ أن تكون اللوحات التسع ممثلة لتسعة أعوام حاصرتني خلالها توصية عباس الزغبي الجهنمية ... بالطبع سوف يجتهد المدير في محو آثارها. ولم لا يفعل؟، أليس هو الذي أبدى مرات عديدة "تبرّمه" من الحظر وضيقه به، وتحفظه عليه؟، ألم يساندني في محنتي دون مراعاة لتحذيرات مديره؟ ألم يتعهد بتحرير لوحاتي وإرجاع حقوقي؟! ما من مناسبة تجمعني به إلاّ وأكد أنه سوف يعمل على إقرار الحق ورفع الظلم واستعادة العدالة.

انتبهت على صوتين متعاقبين صدرا من جهة اليمين. نظرتُ. رأيت فنانا شابًا انشغل برسم لوحة بحامله. وعلى بعد أمتار قليلة أبصرت بكهل يماثلني في كهولتي،

كـــان قـــد فـــرغ من لوحته وراح يتأملها من خلال دخان ســـجارته. لم أتبين معالم اللوحة لبُعد المسافة التي تفصلني عـــنها وسحابات الدخان التي تغطيها تقريبا .. والحق أنني كنت نشوان فلم أواصل النظر.

عدتُ إلى لوحتي الجديدة أوزّع عليها ألوان "البالتّة". أفصح التوزيع اللوني عن أمواج بحرية عالية عاتية ذات لون رمادي تتجه بقوة نحو منزل صغير قريب من الشاطئ، إحدى نوافذه مضاءة، وتوشك الأمواج العالية أن تغمره وتطويه.

أشعلت سيجارة وتراجعت قليلا إلى الوراء .. نفثت الدخان ورُحت أتأمل المشهد العاتي. تذكرت سنوات الحظر التي أقمعتني. تذكرتُ أني طوردتُ لأن لوحاتي تنذر دائماً بوقـــوع أخطار لن ينجو منها أحد، وتدعو إلى مواجهتها. وجاء السيد الرفاعي ودائما يجئ وهو يسرّى عني، ويطيّب خاطري، ويهدّئ من ثورتي، ويخفف من انفعالي. تذكرتُ وعـــده بأن الإفراج عن لوحاتي مسألة وقت. وثق تماماً يا غريب أن حقك محفوظ ومصان ...

حانــت مني التفاتة إلى لوحة الكهل. لم أكن دققت فــيها نظراتــي. اقتــربت منها وهو ماض في استكمالها. تــيقظت حواســي وغــلا الــدم في عروقي. دققت أكثر فتســارعت دقــات قلبــي. تطابقت لوحة الكهل مع إحدى لوحاتــي السجينة في مخزن الإدارة .. حاولت أن أتكلم فلم يخرج صوتي. أدرت عيني في الميدان فلم أجد مَن أتحدث إليه .. الجميع مشغولون في لوحاتهم .. قلت في نفسي: لا فائــدة الآن مــن الاحــتجاج. عدت إلى مكاني حين رأيت الفــنان الشاب يغادر مكانه ويتجه صوب لوحتي .. عندما رآنــي أســرع مغادرا المكان في صمت وعاد إلى حامله ولوحته.

امــتلأت بمشــاعر الغــيظ. أشعلت سيجارة. امتلأ جوفــي بالــدخان والأسئلة النشطة. سعلتُ بشدة وتساءلت: كيف يمكن السكوت وتقبّل هذا السطو الصريح؟ هل أصيح وســط المــيدان؟ فيقولون: جُنّ غريب راضي، أم أعتصم بالحكمــة والرويّة للوقت المناسب؟ الأمل الآن معلق بالسيد

الرفاعـــي. إنه عائد دون شك بالعدل والحق. هو عليم بكل شيء وأتوقع إنصافي على يديه..

أخرجتنـــي مـــن فـــيض الأسئلة – أصوات رجال يقتـــربون. يقـــبلون من الجانب الآخر .. كانوا من موظفي الإدارة يتوســـطهم السيد الرفاعي.. المدير الجديد. فرحت واستبشرت – تابعته وهو يستعرض باهتمام لوحات الفنان الشـــاب، والفـــنان الكهل. لبث أمام لوحات كل منهما وقتاً طويلاً .. قلت سوف يكتشف بنفسه السرقة الصريحة. فهو خبير بلوحاتي المحتجزة وبأسلوبي في الرسم..

أخيـــرا فـــرغ مـــن المشاهدة .. أقبل ناحيتي ومعه رجالـــه .. ازداد فرحي وتوارى همّي. تابع لوحاتي التسع فـــي حـــواملها .. توقـــف لدقائق قليلة أمام لوحة "الأمواج العاتية والمنزل الصغير الموشك على الغرق". اقتربت منه للتحية والحديث. لم يلتفت إلي. قلت هامساً:

- هل تذكر لوحتي السجينة؟ هي نفس اللوحة التي رأيتها في حامل جاري الكهل. هذه سرقة صريحة. لم يعلق الرفاعي على كلامي.

لم يعبأ باحتجاجي. مضى من المكان بغير اكتراث بي. انصرف بملامح جامدة لم أرها في وجهه من قبل. تذكرت ملامح الزغبي المدير السابق. تذكرت التوصية الجهنمية". التي حاصرتني، وسجنت أعمالي. وتساءلت عن سرّ هذا التحوّل المفاجئ والتغيّر الغريب المريب وأنا أرى الرفاعي يقضي وقتا أطول أمام أعمال الآخرين.

وجدتني أشرد بعيني في ضباب ثقيل غطى فجأة أشياء ميدان الفردوس رغم الشمس الساطعة .. عدتُ إلى أعمالي وأدواتي بقلب محطم كظيم. كسر الرفاعي نفسي وبدد أملي. وتساءلت: لماذا تجاهلني؟ لماذا تجاهلتني يا رفاعي؟ مضيتَ دون كلمة ثناء أو مجاملة. كيف هنت عليك وأنت الذي أبقيت في قلبي الأمل مزدهراً طوال السنوات التسع الماضية؟! هل تأثرت بـ"التوصية

الجهنمـــية" فصـــرت بهـــذا الشكل المزري؟ ولمن اتجه يا رفاعـــي؟ لمن أشكو لتحرير لوحاتي؟! كيف تتجاهلني بهذا الشكل المزري؟. لقد دعوتَ فلبيتُ. فلماذا هذا الجفاء؟ هل للـــوحة الأمواج دخل في جفائك؟ آثرت الصمت وغادرت دون كلمة، فأين وعودك التي غمرتني؟

تابعـــت الرفاعي وسط رجال الإدارة وهم يتباعدون عن الميدان .. أحسست بيأس شديد وإحباط غلاّب .. خابت ظنونـــي الحسنة في الإدارة الجديدة، ويمكن لعباس الزغبي أن يطلق ضحكات الشماتة، وأن يهنأ لأن توصيته الجهنمية ما تزال سارية المفعول

ها هو شعور بالقنوط يتملكني. حتى "صوت" رخيم بداخلي على الرحيل. همس الصوت بأن اختار لوحة كبيرة بيضـــاء خالـــية من الرسوم، وفرشاة متوسطة، وعلبة لون أصـــفر. حملـــت اللوحة والفرشاة واللون الأصفر واتجهت نحو وسط الميدان. وقال الصوت الداخلي الهامس الرخيم: لـــيكن المكان ظاهراً ليراك الجميع. وكان الضباب قد خف

قليلا فصار بالإمكان الرؤية بوضوح. وضعت اللوحة البيضاء فوق الأرض. انحنيت.. كان إحساس القنوط غلابا، وتشاؤمي بلغ أقصى مداه. وأملى عليّ الصوت الرخيم أنني مفارق الدنيا غدا الثلاثاء. وبأن عليك أن تكتب نعيك بيدك الآن. استجبتُ. كتبت بالأصفر وبخط كبير عريض ما أملاه عليّ الصوت الرخيم:

البقاء لله

"توفى الفنان غريب راضي اليوم (الثلاثاء) بعد رحلة فنية لم يكترث بها أحد. ولا عزاء للرجال والنساء. حسب وصيته المودعة في مقر نقابة "الفنون التشكيلية"

لبثت بعض الوقت أنظر في حروف "النّعْي" ثم أطرقت. شعرت بوحدة شديدة، وحزن عميق على رحيلي المتوقّع وغيابي المحتمل. ولكني تساءلت هل "النعي" صدى رغبة حقيقية في الرحيل؟. أم هو احتجاج على امتداد توصية سارية المفعول؟. وهل الاحتجاج قادر على حلّ المشكلة؟. وقلت في نفسي: إن السيد الرفاعي ارتدى قناع

عباس الزغبي. وسوف يتقنّع بنفس القناع آخرون، فما الحاجة إلى احتجاج لا يبلغ القلوب ولا يصل إلى العقول...؟.

اجتذبتني من تيار الأسئلة، أصوات أقدام مقبلة... كثيرة وثقيلة. توقف أصحابها في المكان. نظروا. ليس في لوحة "الأمواج" بل إلى الإعلان الأصفر!.. ورأيت السيد الرفاعي وسط وفده الرسمي. وسمعت أصواتاً تتناول الإعلان وهم يقرءون كلماته. لم تكن أصواتهم موحدة، كانت مختلفة. قال أحدهم:

- الخط كبير ولابد أن يُصغّر.

وقال الآخر:

- بل الأكبر مناسب.

وقال ثالث:

- المناسب أن يكون باللون الأسود.

وقال رابع:

- اللون الأصفر ملائم. فهو مثير للشجن والأسى.

وقال خامس:

- حبذا لو وردت في الإعلان عبارة "... الفنان الذي لم يقهره إلا الموت ..."

رأيتني أنهض لأمشي بهدوء وأغادر الميدان .. ابتعدتُ .. خلفتُ الإعلان والحامل والألوان بينما استمع إلى أصواتهم المتخالفة، تركتهم يختلفون في اللون ونوع الخط وحجم الحروف دون أن يلتفتوا إليّ .. توقفت وأرسلت بصري إلى لوحة "الأمواج" .. وفجأة وجدت الأمواج العاتية في إطار اللوحة تهدر وتندفع بصوت عنيف نحو المنزل الصغير المضاء فتعصف به وتطويه، ثم رأيتها تفيض من الإطار بقوة لتضرب ميدان الفردوس، وتكتسح معالمه، وتغمره غير عابئة بأي شيء. أي شيء.



خطوات البصيرة . . .

[١]

تخففــت من بعض حملي الثقيل عندما تحدثت إلى السـيد بـرهان بمنزله بشارع الريحان بمدينة نصر. كان السرّ قد ذاع وانتشر وتداولته ألسنة موظفي الشركة. لم يعد السـرّ سـرا. صـار خبرا، وأصبحنا مادة أحاديث أروقة الشركة، ومكاتبها، وفي المنازل.. حاصرتني عيونهم كلما شاهدوني. أفصحت عن معاني اللـوم والعـتاب والـنفور

والاستنكار. كيف تزج بنفسك في هذه المنطقة الخطرة؟ لا تقــل إنني كنت ضحية ضغط لم أفلح في مقاومته. تركت لنفســك العنان حتى تطورت العلاقة وأثمرت "حبّا عنيفا". حقا هو حب بريء وعفيف لم يتجاوز المكالمات التليفونية، والمقــابلات في الأماكن العامة البعيدة الواقعة في أطراف المدينة. رغم التحوط والحرص ذاع سرّكما بسبب موظف الأرشيف الذي حياكما وأنتما جالسان ذات صباح في حديقة كازيــنو البرجاس. هل تتوقع أن ينسى رئيس مجلس إدارة الشــركة فــيعفو ويصفح؟ أيمكن أن يتجاهل الأمر بعد أن بلغــك توعده وإهدار دمك؟.. كيف ينسى أن زوجته الشابة الجميلة، أسلمت قلبها لمدير مكتبه؟. لن يتعاطف معك أحد. فــتحت نرجس قلبها لك فانفتحت أبواب جهنم. أحب أنور زهــدي الشــاب الطمــوح امرأة تخص رجلا آخر: فاخر الصــياد، رئــيس الشركة .. حب غير مقبول ومرفوض. هكذا قالوا...

وتساءل بعضهم:

– مـــن يقـــبل مثل هذه العلاقة مهما كان السبب؟.
فكـــان لابد من اللجوء إلى السيد برهان لإخراجي من هذا المأزق..

بدت على وجه السيد برهان سيماء الدهشة والذهول والعجب، لكنه بعد أن أطرق قليلا عكست ملامحه مشاعر الصرامة والغضب .. وقال

– يجب التخلي والرحيل.

– كيف؟

– الاستقالة أو النقل إلى فرع الصعيد .. و .. فورا.

– سيدي أنا غير مستعد. احتاج إلى أسبوع على الأقل.

قال:

– دع بصيرتك تَقُد خطاك.

ولما وجد مني ترددا قال بانفعال:

– الاستقالة أو النقل فوراً.

حلّ علينا صمت خال من المودة ثم قال محذرا:

- لا يجب أن تحدث أحداً بهذا الموضوع بعد الآن.
سكت قليلا ثم أردف:
- ســوف أساعد من الغد في سرعة إجراءات الاستقالة أو النقل.

شــعرت بضــيق في صدري وبوخز في قلبي وهو يكــرر للمرة الثانية كلمتي "الاستقالة" و "النقل". رغبت في المغادرة فاستأذنت بعد أن وعدته بالتنفيذ. مشيت في شارع مجــاور لمســكنه مظلل بأشجار تنبعث من بعضها رائحة الياســمين. أحبــبت أن انفــرد قبل أن آخذ سيارتي. كنت بحاجــة إلــى التفكير في الأمر. وكان الهدوء يخيم على الشارع المزدان بأنوار النيون.

انطلقــت في نفسي أفكار متسائلة: كيف أتخلى بهذه السهولة عن (نرجس)؟. قالت بانفعال:
- سوف أفاتحه وأصارحه وأطلب الطلاق.

ربمــا تكــون قــد فاتحــته بالفعل ، وتخضع الآن للمساءلة، أو التعنيف، أو الاعتداء الوحشي. وقلت لها:

- نحن لم نرتكب إثما، علاقتنا نقية وطاهرة.

وقالت في يأس:

- تصورت أنه فارس أحلامي الذي كم حلمت به!.

قلت أعاهدها:

- أنا إلي جوارك، وسوف أواجه العاصفة.

فكيف يمكنني التخلي الآن بعد أن قطعت على نفسي هذا العهد؟ ألا يمكن تأجيل ما أمرني به السيد برهان؟ ماذا سيحدث لو نفذت بعد غد أو بعد أسبوع؟ أو بعد شهر؟ بل ماذا سيحدث لو رفضت النقل؟ هذه شركة ليست ملكا لفاخر الصياد. سأذهب إليه وأكلمه إذا عجزت نرجس عن إقناعه.. أكرهها على الزواج منه منذ خمس سنوات بعد أن رفضت أن تكون خليلته .. كانت بحاجة إلى الوظيفة .. يكبرها فاخر بخمسة وثلاثين عاما. ألا يعد هذا الفارق مبرراً كافياً لإطلاق سراحها؟. لا داعي إذن لتنفيذ ما أمر به السيد برهان.

تــوقفت فـــي منتصف الشارع. شعرت بهبّة نشاط تسري في أوصالي لتوصّلي إلى هذا القرار. استدرت عائداً إلـــى موقف سيارتي بهمة عالية وتفاؤل شديد. قبل أن أفتح بـــاب الســـيارة رأيت "نرجس" تجلس في المقعد الأمامي. كـــيف دخلـــت بيـــنما المفتاح بحوزتي؟. جفلت وتوجّست. ولكنـــي سرعان ما تأكدت من أنها هي هي نرجس. دخلت السيارة وجلست. سألتها:

– كيف دخلت السيارة وهي مغلقة؟

ربتت كفي فتوارى توجّسي وتراجع جفولي. قالت:

– جـــئت لأحذرك. رفض الطلاق وقرر الانتقام منك. خذ حذرك لا تأمن لمخلوق.

مـــددتُ يدي لأضغط يدها الصغيرة وأبثها مشاعر امتنانـــي ولكن يدي اصطدمت بحافة المقعد. ليست نرجس موجودة. كنت واهما. كيف أتت من المهندسين؟ تسكن مع زوجهـــا كما نعرف في شارع الأشجار. ليس من المعقول أن تصـــل إلى مدينة نصر وهي تجهل منزل السيد برهان،

بل هي لا تعرف الرجل نفسه. كيف فتحت الباب ودخلت؟.
عاد التوجس والجفول.

تذكرت تحذير الشيخ برهان وإصراره على الاستقالة أو النقل. هل يمكن أن أعرف يا سيدي المصير الذي ينتظرني؟. هل حانت ساعة المصارحة؟. قبل أن ينزل بي عقابه سأعلن على الملأ سبب الاعتداء. ولو اقتصر العقاب على الفصل أو النقل سأواجهه دون خوف. نرجس تستحق المجازفة: نرجس ذات العشرين تعرضت للإيذاء البدني والنفسي من زوج أم خلا قلبه من الرحمة. نرجس أرادها فاخر الصياد خليلة بعد أن أصدر قرار تعيينها سكرتيرة له. لكنها قبلته زوجا – رغم فارق السن – لتحظى بوظيفة تبعث بنصف مرتبها إلى والدتها وشقيقتيها الصغيرتين. نرجس تستحق المخاطرة. مضيت بسيارتي متجهاً إلى مسكني بحدائق الأهرام.

[٢]

قُدتُ سيارتي بالطريق الدائري متجها إلى مسكني بحدائق الأهرام .. كان الليل قد أسرع إلى منتصفه بينما

ازدانــت الســماء بــنجوم متلألئة وبقمر مكتمل التكوين. السيارات العابرة والقادمة من الطريق المقابل كانت قليلة. شعرت بالوحشة بعد أن قطعت منتصف المسافة. اندلع في نفســي إحســاس نشط بأنني ملاحق. وبأن خطراً ما يحيق بي. نظرت في مرآة السقف فرأيت سيارة تتابعني.. سوداء كبيــرة الحجم. هدّأت من سرعتي قليلاً فهدّأت هي أيضاً. أســرعتُ فأسرعت كذلك .. أدركت وتأكدت أنني ملاحق. اضــطربت وقلــت في نفسي: هل حانت ساعة الانتقام؟!. لكننــي تذكرت (نرجس) فقويت عزيمتي، أحسست بها .. رأيتنــي فــي حديقة البرجاس أخفف عنها وهي تشكو من ســوء معاملــة زوجها. وكان قد صفعها أمام الخدم لمجرد أنهــا اعترضت على اختلائه بسيدة فترة طويلة في حجرة مكتــبه بقصــره المنــيف. لماذا تزوجني إذن؟. هل خطط لتعذيبي لأنني رفضت أن أكون خليلته؟. في كل يوم يتعمد إهانتــي، فلمــاذا لا يريحنــي؟ سمعتني أقول: أحببتك ولن أتخلى عنك مهما كانت العواقب. وسمعتها تقول: أخشى أن

يصـــيبك مكـــروه .. أخاف أن تتعرض للأذى. وسمعتُني أقول بتصميم: سأقف إلى جوارك مهما كانت العواقب.

حازتني السيارة المتابعة، وأشار رجل ضخم الجسم يجلـــس بجانـــب الســـائق – أن أتوقف. لم أمتثل لإشارته، تابعـــت الســـير بســـرعة زائدة فأسرعت بدورها السيارة المطـــاردة .. خففت من سرعتي فجأة بسبب سيارة ضخمة سوداء واقفة تعترض الطريق، وخارجها أشخاص يرتدون ملابس سوداء جلدية. كانوا خمسة. اضطررت إلى الوقوف فـــتوقفت مـــن خلفي السيارة المطاردة. انضم راكباها إلى راكبي السيارة المعترضة، صار العدد سبعة أشخاص. تقدم اثـــنان منهم وانتزعاني من مكاني. لم أجد بنفسي رغبة في المقاومـــة. أنزلاني منها وأمسكا بي، ثم تولى اثنان توجيه لكمـــات قوية عنيفة وسريعة إلى وجهي وصدري وبطني. عجـــزت عـــن إصدار صوت استغاثة بينما كانت تمرّ بنا ســـيارات لا يكتـــرث قائـــدوها وراكبوها بواقعة الاعتداء. أحسست بدماء تسيل من فمي وأنفي، وشعرت بآلام مبرحة

فـــي صـــدري وبطنـــي. ثم حملني اثنان ونزلا إلى أسفل
الطـــريق. مضـــيا بـــي مســـافة تقارب مائتي متر. توقفا.
وجدتهما يقتربان من حفرة عميقة تشبه البئر. أوثقاني بحبل
كـــان يحمله أحدهما ثم أدليا بي إلى القاع دون أن أقاوم ..
وفـــي لحظـــات رأيتنـــي واقفا في قاع البئر. سحبا الحبل
وانصـــرفا دون كلمة. جلست القرفصاء في القاع، وأسندت
ظهري إلى الحائط في استسلام من غير أن أصدر صوت
استغاثة أو احتجاج ...

[٣]

من قاع البئر رأيت القمر. تأملت في استدارته وجه
إنسان جميل مبتسم. ورأيت فيه سحباً تركض خلف سحب.
ورأيت بعض النجوم تبرق كالماس. فكرت في أنني لم
أتأمل وجه القمر منذ أن غادرت قريتي. فتساءلت: كيف
فاتني أن أصعّد إليك بصري – يا قمر – طوال السنين
الماضية؟. ورأيت "ضياء الفجر" وبدايات النهار .. ورأيت

الشروق. ورأيت الغروب. وتساءلت كيف فاتني أن أتأمل ألوان الضياء ودرجاته؟.

اندمجت في تساؤلاتي زمنا طويلا حتى أحسست بخدر أسلمني إلى غياب عن الوعي .. ربما نمت وربما تعرضت للإغماء! ثم فتحت عيني على زرقة الليل، وضوء القمر، وضياء الفجر، والشروق، والغروب، ولم أجد بنفسي حاجة إلى أن أحاول الخروج. نعمتُ بالتساؤل والتأمل والاندماج، ولم أعد أفكر في شيء. بهتت صور الأشخاص والأشياء. صعّدت بصري إلى قطعة مستديرة من السماء يتوسطها القمر والنجوم، وإلى ضياء الفجر، وشروق الشمس والغروب.

مـــرت عليّ أيام وليال وأنا قعيد قاع البئر بلا طعام ولا شـــراب. وَهَـــنت قواي ولكن بصري لن يهن. ظللت أصـــعّد بصري في درجات الضوء وألوانه. لم أجد بنفسي أي رغـــبة فـــي محاولـــة الخروج .. لماذا أحاول وجميع الصـــور قد تلاشت؟. فما عدت أذكر سوى "صورة السيد

بـــرهان" المهيبة، وصوته الرخيم يردد كلماته الأربع "دع بصـــيرتك تَقُدْ خطاك".. رأيت وجهه الطيب النوراني يطل عليّ في جلستي من فوهة البئر .. قلت: اعتذر يا سيدي لم أقـــدر كلامـــك كما يجب أن يكون التقدير. أرجو أن تغفر وتصـــفح .. فمنحني ابتسامة رضا وألقى عليّ بقطعة خبز وتفاحـــة .. وقال بصوته الرخيم: سوف تنجو ولكني عاتب علـــيك .. ثم اختفى بصوته الرخيم ووجهه النوراني. أكلت قطعـــة خبز وقضمت قطعة من التفاحة. شعرت بنعاس أو إغماء.. لا أدري..

وفـــي نعاسي أو إغمائي أطل من فوهة البئر وجه فـــتاة حسناء مثل قمر مستدير، ذات بشرة بيضاء كالحليب، وانســـدلت من رأسها خصلات من شعرها الأسود الفاحم. بهرني الوجه القمري ولكن لم أبرح مكاني .. قالت بصوت حنون: أرسلني السيد برهان لأعاونك على الصعود. أبديت لهـــا رغبتـــي في البقاء. لست حريصا على النجاة. فقالت: الســـيد برهان أمرني بإخراجك. فتساءلت: كيف يمكنها أن

تخرجنـــي مـــن هذه العمق؟ ثم رأيت ذراعها الأيمن يمتد ويمـــتد ويلامـــس وجهي ويربت رأسي وكفي، ثم قبضتْ بكفها على يدي وسحبتني في سهولة، فرأيتني خفيف الوزن كريشـــة طائـــر صـــغير. كـــيف تمكنت من رفعي بيديها الصـــغيرتين؟ لم أكن أعلم أن وزني بمثل هذه الخفة، وما خطـــر بذهنـــي أن جســـمي قـــد يفلت من يدها فجأة وهي ترفعنـــي. لماذا وثقت بك وأسلمت لك أمري دون خوف أو تـــردد؟ فمـــن تكـــون هـــذه القمـــرية التـــي تخلب النظر والبصـــيرة؟. لقـــد نسيت تماماً كل شيء فلم تعد تعاودني الصـــور السابقة، ولم أجد أية رغبة في مراجعة مشاعري تجـــاه الماضـــي .. كـــل ما بذهني الآن هو الفتاة القمرية رسول السيد برهان ... فمن تكون هذه الفتاة؟

أجلستني بعيداً عن الفوهة بحنان. استدارت ومشت فـــي سهل أخضر منسق النجيل، وممتد إلى حدود مزرعة بـــرتقال تحـــدها من كل جانب أشجار الكافور. رغبت في محادثـــتها لأشكرها وأثني عليها .. لكنها مضت في سيرها

قاطعـــة هـــذا المرج الأخضر البديع متجهة إلى المزرعة، بيـــنما كـــان الشـــروق يمهد لشمس آتية من الأفق، سوف تتوســـط زرقة السماء .. ثم تغرب بشفق في مشهد لم أره منذ زمن بعيد..

أجنحة الحب



أجنحة الحب

تأكدت من إغلاق باب مسكني الكبير بعد أن سمعت خلفه أصوات أقدام متلصصة. تفقدت بحذر حجراته الخمس حجرة .. حجرة، ثم اتجهت نحو مقعدي الخاص بالصالة الواسعة، وجلست بجوار التليفون أحتسي وحدي شاي المساء.

أدرت بصـــري بين محتويات الصالة للحظات، ثم أشـــعلت ســـيجارة سحبت منها نفسا عميقاً، فسعلت بشدة. سمعت صدى سعالي يتجاوب في مسكني الكبير فانزعجت.

ســـارعت إلى إطفاء السيجارة خوفاً من العواقب الوخيمة؛ فأنا وحيد وليس بالمسكن إنسان سواي.

عــندما توقــف الســعال امتدت يدي إلى التليفون وطلــبت نبيلة خطيبتي. أجابتني نبيلة بصوت رقيق حنون: أنـــا جاهــزة .. وفي انتظارك. وضعت السماعة وابتسمت بســعادة وقلت في نفسي: عليّ أن أخرج وأصحب نبيلة .. ضـــالتي المنشــودة، فقد دعوتها لمشاهدة مسرحية "أجنحة الحب"، بالمسرح العائم فوق مياه النيل.

وقبل أن أنهض رنّ جرس التليفون. رفعت السماعة فصـــكَ أذني صوتٌ صارخ عرفتُه .. توعدني بكلام لاهث أثارنـــي. الصـــوت للغندور النصاب شريك أبي .. أغرق الغـــندور أمـــوال أبـــي في مشروع تجاري وهمي. زلزل الغندور وجودي في خمسة أيام. سقط أبي وشل ومات في يومين، ولحقته أمي بعد ثلاثة أيام.

قال الغندور في السماعة:

- كيف تقاضيني وقد سبق أن حذرتك؟ أنت متهور وسوف تدفع الثمن.

خطـــرت بذهنـــي صورة أبي وهو يقول لأمي ذات مســـاء رديء: وقعـــت الكارثة. ضيعني الغندور. ضاعت الثروة بتدبير هذا النصاب.

أجبته كاظما غيظي:

- أنت خُنت أبي وسوف ألاحقك حتى النهاية.

فزمجر قائلاً:

لقـــد نصـــحتك. الـــدمار مصير كل من يتحداني، وسوف ترى.

فعقبت كاظما غيظي:

- قدمت المستندات، ولا أحد فوق القانون.

فقاطعني غاضباً:

- حذرتك ولن ينجيك أيّ إنسان.

تجاهلت تحذيره وقلت كاظماً غيظي:

- سينصفني القضاء ويعيد إليّ كافة حقوقي.

ازداد غضبه فوصفني بالحمق، والغباء، والجنون. وصبّ في أذني قبل أن ينهي المكالمة سيلاً من السباب والوعيد. فقلت بتصميم:

- لابد من معاقبة الجاني، لابد.

والحق أن صيحات الوعيد، والتهديد والتحذير دعتني إلى التفكير المتأني؛ فكرتُ في أنني ملاحَق ومراقَب، وأن توجَسى من أن يغدر بي الغندور - لم ينشأ من فراغ. وفكرت في خطورة وحدتي، وتجاوزي سن الأربعين. وفكرت في التعجيل بعقد قراني على نبيلة، وانتقالها إلى مسكني الكبير الفسيح المتعدد الحجرات. نبيلة ضالتي المنشودة وحيدة مقاول كبير يتعامل مع مكتبي الهندسي. نبيلة اختارها قلبي لحظة أن رأيتها بعد مضيّ شهرين من وقوع الكارثة. كانت اللحظة جميلة ورائعة حين أشرقت على مكتبي برفقة والدها زهدي التابعي. تبادلت معها حديثاً قصيراً لكنه كان كافيا لأقول لنفسى: أخيرا عثرت على ضالتي المنشودة .خطبتها في اليوم

التالـــي فشعرت بفرحة في قلبي لأول مرة بعد شهرين من وقـــوع الكارثـــة. أحسست وهي بجواري أن القدر شاء ألاّ يطـــيل إحساســـي بوقـــع الكارثـــة التي أبقتني وحيداً أمام غريمي، الذي تحديته وأتحداه بقوة القانون. لم أشأ أن أخبر نبيلة وأسرتها بالأمر لأنني قررت مواجهته بمفردي. الآن يهددنـــي غريمـــي بشراسة، ولابد من أن تملأ نبيلة الفراغ الهائل، لتحيطني بسوار من الأمان، فأواصل صمودي أمام غريمي الذي يجب معاقبته.

حـــين خـــرجتُ بسيارتي من جراج العمارة قاصدا منـــزل نبيلة – تحركت خلفي تتابعني سيارة سوداء يقودها شاب كبير الرأس، ضخم الصدر، محشور في سترة جلدية سوداء، ويجلس بجانبه شاب يماثله في الحجم ولون السترة. اضـــطربتُ وأيقـــنت أن الغندور بدأ في تخويفي وإرهابي. ولكن قبيل وصولي إلى المنزل لم أجد في مرآة السقف أو المـــرآة الجانبـــية أي أثر للسيارة السوداء. فطمأنت نفسي بأن الشابين والسيارة السوداء مجرد وهم.

عندما استقرت نبيلة بجانبي في السيارة – أبديت لها رغبتـــي بعصبية في التعجيل بعقد القران، فوافقتني بعينيها الصـافيتين. وقلت لها:

– ســـأتحدث مع والدك في الأمر بعد رجوعنا من المسرح.

وقالت نبيلة متسائلة:

– صوتك متوتر ... هل حدث شيء؟.

نظرت بسرعة إلى وجهها الوديع وقلت:

– لا شيء. ولكني أريد أن نستقر معا.

فقالت بابتسامة صافية:

– وأنا أتمنى ألا أفارقك لحظة.

سعدتُ بالإجابة الحانية. ولكن مرآة السقف أبرزت لعيني السيارة السوداء. فانسرب إحساسي بكلامها الحاني. ثـــم مـــا لبـــثت الســـيارة المراقبة أن عادت إلى الاختفاء، فشعرت بالارتياح.

بلغنا موقع المسرح العائم قبل بداية العرض بنصف ساعة. رغبت نبيلة في أن نمشي قليلاً على الشاطئ. وافقت بعد أن تأكدت من خلو المكان من السيارة السوداء. وقالت وهي تتأبط ذراعي بقوة:

– أشعر أنك تخفي عني أمراً خطيراً.

صمتت قليلا ثم أضافت:

– سأروى لك حلماً جميلاً رأيته فجر اليوم: "رأيتك تأخذني إلى الكازينو الدائري بأعلى برج الجزيرة.. وكانت المناضد القريبة منا والبعيدة عنا مشغولة برجال ونساء وأطفال. وفجأة اكتشفنا أننا بمفردنا. اختفى الجميع، ولم نعد نرى جرسوناً ولا موظفاً. اقترحت عليك أن نهبط بالمصعد فوجدناه بلا كهرباء. مضينا نحو الباب المؤدى إلى السلم فرأيناه موصداً. أمسكنا بالتليفون فلم نجد به حرارة – تبادلنا نظرات حائرة، وشملنا صمت قطعه صوت طفل جميل. قال:

– البرج سينهار. البرج سينهار.

عندما رآنا حائرين قال

- لا يوجد غير حل واحد قبل أن ينهار البرج: أن تفعلا مثلي.

ورمـــى الطفل بنفسه، فتهاوى في الفضاء للحظات ثم هبط إلى الأرض بسلام. فحاكيناه بأن قفزنا معاً. أمـــا أنـــت فقد هبطت بسلام، وأما أنا فقد بقيت في الفضـــاء دون هـــبوط وأنا أسمع ضحكاتي. فسّرت الحلـــم بعـــد يقظتي بأنني سوف أعيش حياتي معك محلقة بأجنحة الحب والرضا والسعادة والسلام".

شـــردت قلقـــا فـــي الحلـــم بعض الوقت. وشعرت بانقـــباض فـــي صدري فضغطت يدها بخوف وحنان. ثم اكتشفت أننا ابتعدنا كثيرا عن موقع المسرح وعن الأضواء حيث لفّنا ظلام خفيف فتوجست. توقفت وقلت:

- لنعد الآن.

حـــين استدرنا برز من وسط الظلام شبحان، تبينتُ مـــن حجمـــيهما ولـــون ملابسهما أنهما الشابان المراقبان

بالسيارة السوداء. أحسست بخطر محدق بنا فتحفزت للدفاع والمــواجهة في اللحظة التي سدد فيها الاثنان معاً سكينين نحــوي، انغرســت إحــداهما فــي ذراعي بينما أخطأتني الأخــرى فانغرســت فــي صدر نبيلة، صرخت مستغيثاً، فهرب الشابان. وجاء ناس كثيرون يحملون أضواء باهرة. وهرع شخصان من سيارة إسعاف حضرت بسرعة، وجاء ضابط وجنود ينظرون ويسألون. وأسرعت سيارة الإسعاف تشــق الطــريق إلــى المستشفى وأنا غير مصدق. وتحت ضوء سقف السيارة المسرعة أفضت نبيلة الروح بين يدي بــوجه صــاف متســائل وأنا غير مصدق. ضممتها إلى صــدري بقــوة وبعينيّ غريمي الذي أعرف تماماً الطريق إلى منزله ..



حب جارف

[١]

دعتني ابنة عمي وزوجها إلى جلسة شاي مسائية بصالون شقتهما البديعة بالضاحية الجديدة. وقبل أن أرشف الشاي من الفنجان الذهبي اقتحم الصالون الوثير كلبٌ مدلل، واتجه بسرعة وخفة نحو ابنة عمي، فمسحت بكفها حانية على رأسه، وأشارت بإصبعها إلى أسفل، فجلس هادئاً بالقرب منها.

ضغطني الإحساس بالضيق فسألت ابنة عمي:

- هل يقطن الكلب المنزل؟

فتجاهلت سؤالي بقولها:

– جلبناه من فرنسا. إنه من نوع نادر.

فكررت السؤال:

– هل يقطن الكلب بالمنزل؟

أجاب زوجها:

– بالتأكيد. إنه لا يؤذي أحداً على الإطلاق. إنه متعلم، وينفذ كافة التعليمات.

أضافت ابنة عمي:

– وله طبيب يفحصه مرة في الشهر. وممرضة تراقب صحته كل يومين. وخادمة ترعى شئونه بالنهار والليل.

وضعت الفنجان المملوء بالشاي فوق المنضدة ونهضت بسرعة. فقالت ابنة عمي:

– إنه نظيف للغاية.

وقال زوجها:

– ثق تماماً أنه لا يلمس شيئاً بالمنزل.

وقالت ابنة عمي:

– سوف أهديك واحدا مثله ليؤنس وحدتك. كيف لا تحب الكلاب؟.

ولم أجب. فأضافت متسائلة:

– ومن منا لا يحبها؟.

ودّعتهما بغير مصافحة، ومضيت إلى باب الشقة قائلاً:

– أرجو المعذرة، فأنا لا أتناول شيئا في بيت يقطنه كلب. ثم توقفت برهة والتفت إلى ابنة عمي وقلت لها:

– عليك أن تختاري.

فردت على الفور بصوت غلبه الانفعال:

– الكلب طبعاً.

حاول زوجها أن يخفف من حدة الإجابة بعبارات مجاملة:

– ليس إلى هذا الحد .. ممكن إيجاد حل .. لو فكرت قليلاً .. يعز علينا أن تتركنا بهذه السرعة ..

قبل أن أخرج من الباب اجتذب عينيّ الكلبُ وهو يقف بجوار ابنة عمي وينظر ناحيتي في صمت. وعندما وصلت إلى سيارتي. سمعته ينبح بثقة ودون عصبية. وواصل نباحه وأنا أحرّك السيارة، وكأنه يعلن انتصاره عليّ.

[٢]

مضيت داخل سيارتي أفكر في الموقف، وأطرح على نفسي سيلاً من الأسئلة: هل أنا على حق؟ "هل أخطأت في تصرفي؟" ولماذا تحدثت ابنة عمي بهذه الحدة؟ ومتى أصل إلى مسكني لأحتسي كوب شاي؟..

بلغتُ المنزل وأنا مملوء بالغيظ والحزن بسبب إصرار ابنة عمي على اقتناء الكلب بشقتها الجديدة. دخلت حجرتي وجلستُ فوق حافة السرير أفكر في إصرار ابنة عمي وزوجها. تمددت بثيابي في سريري وأنا لا أشعر بالرغبة في تناول أي شيء، أو التحدث إلى أي إنسان. وغفوت ..

رأيتني أنهض وأخرج، واتجه إلى مقهى مجاور لمسكني. وجدتنى أطلب من عثمان الجرسون "واحد شاي". ورأيت صديق العمر رفعت الجمل يقبل على المكان فبادرته قبل أن يجلس:

- هل تحب الكلاب؟

فأجاب بأنه يقتني اثنين في مسكنه بناء على رغبة زوجته.

وحكيت له عن موقفي في شقة ابنة عمي فضحك وقال:

- ومن منا لا يحب الكلاب؟.

وعندما وجدني صامتا قال:

- عليك أن تسأل أي أحد ..

ورأيت الجرسون "عثمان" يحضر صينية الشاي اللاّمعة ويضعها أمامي فوق المنضدة. وسمعت رفعت يسأله. وسمعت عثمان يقول:

- نسيبي أهداني أول أمس واحداً جعلنا جميعاً سعداء. أنا وزوجتي وأولادي الأربعة.

لم أنظر إليه ولكني أزحت صينية الشاي من أمامي. فضحك رفعت بصوت عال..

.. ورأيت في مقعد مجاور شابة أجنبية حسناء بشرتها بيضاء وشعرها أشقر. أمامها طاولة تعلوها حقيبة سوداء منتفخة، وتدخن شيشة، وتتابع دخانها المتصاعد في الفضاء. اقترح صديقي رفعت أن أسألها عندما وجدني مهموماً ومكتئباً، فسألتها أولاً بالإنجليزية فلم تجب، ثم بفرنسية ركيكة فأجابتني على الفور:

- بالتأكيد أحبها، بل أعشقها.

ثم رأيتها تفتح الحقيبة السوداء المنتفخة وتخرج منها "كلباً" صغيراً، وضعته فوق المنضدة، يشبه كلب ابنة عمي، وقالت الحسناء:

- هذا كلب نادر. يسعدني أن أهديه إليك.

نهضت بسرعة، ورأيتني أجري، وأسرع إلى مسكن ابنة عمي، ورأيتها تقابلني بثوب أبيض ناصع البياض أمام مدخل شقتها الجديدة. لاحظت أن المدخل أكثر اتساعاً وبغير باب، وتقدمتني بخفة تمشي فوق رخام أبيض لم أره من قبل. ولم يكن بجوارها كلب. ودعتني إلى الجلوس. وقالت معتذرة:

– لا تغضب مني .. صرفته إلى غير رجعة، واستبدلت الأثاث بآخر جديد، وغيّرت الأرضية إلى رخام أبيض كما ترى.

صدقتها وتأثرت، وفرحت بكلامها الرقيق. وتمنيت أن أسمع منها المزيد من الكلام. ولكني صحوت. صحوت على نباح كلب متقطع يتهادى إليّ في سكون الليل، يصدر من شقة تواجه شقتي بالعمارة المقابلة!..



انتظار ..

[١]

... الخطـــوات المجهولة بالخارج مرة أخرى وأنا أتابـــع زوجتـــي تتهيأ للخروج إلى حفل الجمعية الخيري. أنصـــت إلى وقع الأقدام: بطيئة مترددة، مقبلة مدبرة على أسفلت الشارع السفلي، وفوق الدرجات الثلاثين. أهرب إلى حـــائط أصم تتشبث به رأس زنجي تعلو لوحة فنية لرسام عالمي لا أهتم بتذكر اسمه ..

ها هي أخيرا – في المرآة – تتعطر وتبتسم. تبتسم فـــي صمت يزيد من قهري، لا حديث بيننا ولا همس ولا

حتـــى شـــجار. تطالعنـــي فقــط بابتسامة باهتة مرسومة ومقصـــودة، قاصدة تعويضي عن رؤية المعنى الحقيقي في عينيها الصافيتين.

وراحـــت لوحة الحائط تعارضني بإلحاح وزوجتي الجمـــيلة تســـعى نحو الفراش، ولكن بتردد كتردد خطوات الشارع السفلي والدرجات الثلاثين. تجتذبني والعطر يسبقها إلـــيّ .. تتكئ الآن على حافة السرير كي تطبع على خدي قبلة الخروج..

فكـــرت أن أحـــول وجهي – هكذا أفعل كل مرة – لكـــن لم أفعل، لا كلام. شيء ما يتصدع. ينهار. ضربات قلبـــي سريعة ونشطة وأحبها، فأسلم خدي لشفتيها الرقيقتين دون أن تتلاقى عيوننا ولو خطفا.

ابتسمت وهي تتباعد. الظهر.. عيناي تتجولان على فســـتانها الأسود المحبوك، لو أرافقها هذا المساء!. أود أن أكون هناك.

قـــبل أن تصل إلى الباب وقفت والتفتت إليّ ساهمة شاردة بغير عيون. قالت:

- لا تنس موعد الدواء، الثامنة والنصف.

فقلت بسرعة:

- لن أنسى موعد الدواء، الثامنة والنصف.

فأضافت وكأنها لم تسمعني.

- وعموما لن أتأخر.

مضـــت بجســد ملفوف شاب، لا أراها. احتجبت. رائحـــة مـــا تســبح فـــي الحجرة غير عطرها المميّز. لو أرافقها، أحب أن أكون هناك، أنيقة ومثيرة لا تماثلها واحدة مـــن النساء. وأبتسم وأنا ألمح على "الكومودينو" مسرحية لبيكيت، انتهيت من قراءتها منذ أيام.

[٢]

شـــددت باب الشقة بغير عنف. خرجت .. أصوات القدمـــين، تهبط .. صوت محرك السيارة، قائدة ماهرة .. الســـيارة تبـــتعد. تقلـــص الآن عطرها الصارخ والليل لم

يشـــرّف بعد. ما زال الجو الرمادي يكسو – في الخارج – حـــوائط العمارات المقابلة. لا أستريح لتسلله إلى الحجرة، فأمـــد يدي إلى الأباجورة في هروب. أسكن بالضوء الذي بدد الظلال .. بدد الرماد ..

أغمض عيني للحظة لأفتحهما على ساقي الممدّدين بـــلا حراك. أتضايق فأقفل النور، عاد الرماد إلى الحجرة، فتنداح في صدري أهة مهتاجة راحت بجسارة تسري بأذني تجاوبها أصوات رسمية حادة: "العلاج. العلاج المنظم كفيل بتغييـــر الأمـــر وتحقـــيق الأمـــان. الأمل مهم. والانتظار واجـــب". توجـــيهات قالوها وولّوا. فماذا بعدئذ؟ أليس لكل شـــيء نهايـــة؟ أليس لكل شيء نهاية يا سيدي الطبيب ؟!. لكن الطب قال كلمته وسكت. فتساءلت: أين الأمل الموعود أيـــن؟ فلـــم يجبنـــي أحد إلا بكلمات. وهذه زوجتي الشابة الجمـــيلة عضـــو "جمعية الأمل الصحي" لا تتحمس كثيرا للـــبقاء إلـــى جواري بعد أن أراقت كل دموع العينين حين سمعت الطبيب يقول لها وأنا في شبه غيبوبة: "لا آمل على

الإطـــلاق. قــد يحـــتاج فقط إلى معجزة. ولسنا في عصر المعجزات". انشطرت. انشطرت .. شللت وانتهى الأمر .. وجدتني أردد كلمات الطبيب وأتذكر حادث السباق النهري:

"كانت زوارق الإنقاذ على مقربة منا نحن المتســـابقين. كـــان الموج هادئا .. وكنت أحـــتل المركز الأول قبيل حدوث اللحظة الحـــرجة: لقـــد أحكم الفزع سطوته وأنا وســـط المـــوج الحافل.هاجمني الألم دون اســـتئذان بأســـفل الظهـــر متصاعدا إلى مؤخـــرة العـــنق .. "آه، الـــنجدة"، وكانت زوجتـــي فـــي زورق قـــريب تلـــوح لي وتمطرنـــي بقـــبلات عبر الهواء. "آه آه، الـــنجدة النجدة، الألم الألم، النجدة النجدة". وحـــلّ بعينـــي ظـــلام مخيف وأنا محاط بدوامـــة مـــن نظرات أصحاب المعاطف البيضاء: لقد انتهى كل شيء تقريبا عندما

نفضوا أيديهم جميعا، ورسموا على الشفاه
إجابــة واحــدة محددة: لقد أصيب السباح
الماهــر، شــل، انشــطرت شطرين، آه،
وصـــحت بالوجوه المتحلقة المحدقة: هل
مــن أمل؟ وكانت الحجرة مكتظة بالرجال
.. تــنقلت عيــناي عليهم واحدا واحدا ..
فتضــاعف همي وودت لو تختفي زوجتي
الجميلة فلا تظهر أمام رجل، أي رجل".

[٣]

.. الظــلام .. خيالات الطوابق العليا بعمارتنا على واجهة العمارة المقابلة، أرى الخيالات بوضوح، ضحكات خفيفة وناعمة تضجرني. رأس لأنثى وأخرى لذكر تلتقيان ثم تبتعدان ثم تلتقيان ثم ..

آه .. الأباجورة هي الأمل، النور. الكومودينو. "في انتظار جودو". سحبت المسرحية، قلبت صفحات قرأتها من قــبل، أمــد يدي إلى الأباجورة: الظلام ثانيا، هذا أفضل.

فأتتبع خيالي الرأسين أمامي على الجدار. الرجل في الطابق الأعلى فوقي مباشرة مجنون بامرأته وهي نافرة .. امرأة المجنون شكت لزوجتي إصراره على الغزل الصريح حتى في النوافذ، زوجتي حكت لي، اختنق، يغريني النوم .. أتثاءب .. أحلم:

"تمددت معي فوق سطح أعلى عمارة تطل على شاطئ نهر. وكانوا تحت يتحركون بأشكال متفاوتة متضادة .. وبينما كان الماء رماديا يغازل بصري - نهضت زوجتي تعدل من ملابسها، وطلبت أن أصطحبها إلى حفل الجمعية الخيري .. كان وقتها ظهري يؤلمني، لما شكوت لها عجزي فجأة عن الحركة، أصرت لأني لست عاجزا، هل شفيت؟ ياه! أخيرا المعجزة ..، أغادر سطح العمارة العالية، أنا هبطت بسلام، أنا مشيت بغير مساعدة. دون أن أتأبط ذراع امرأتي، فستانها

أزرق مكشوف الصدر، وكان أولاد يصفعون الماء بأقدامهم الصغيرة، وجدتني أخطو بلا صعوبة. أخطو بين الدولاب والمرآة وباب الغرفة وباب الشقة. وجدتني أهبط الدرجات التسعين، هبطت جميع الدرجات التسعين، ياه!. وهتفت في الشارع وأنا أقود السيارة بجنون: لا أصدق أني نجوت، وكانت زوجتي سعيدة، وهتفت: لن تكوني وحدك بعد الآن يا عزيزتي، أملك كل شيء، سوف أسبح مرة أخرى. لن تذهبي إلى مكان وحدك يا عزيزتي. وبدت جمعية الأمل الصحي فوق جبل أزرق كحصن أسطوري. نزلنا من السيارة .. وجاءت في نفس اللحظة سيارة حمراء كبيرة نزل منها رجل أنيق وطويل، حيّا زوجتي وحدها وسبقنا، ورغم دهشتي لتعدد المشاهد، فكرتُ في

الرجل بحزن: تحيته لزوجتي صفعة حادة هـوت علـى أذني اليسرى، وفكرت في الابتسـامة التي بدت على شفتي زوجتي، وفكـرت في الرجوع، لكن تلقفتني رئيسة الجمعـية المسـنة المتصابية. رحبت بي وأغرقتنـي في أحاديث متشعبة .. وفجأة اكتشـفت اخـتفاء زوجتي الجميلة ولم أر الرجل الطويل الأنيق، عندئذ عبثت بي يد خفـية وتّرت أنفاسي، لكن انطلق يطحنني فم المرآة المتصابية بأسنانه الصناعية. ثم وجدتنـي أتـركها فجـأة وأتقدم من باب موصد، فتحته، آه ... سقطت.. ودرت في دوامـة مـن نظرات أصحاب المعاطف البيضاء، بينما التفّت زوارق الإنقاذ حولي راسمة في الماء حلقات متعرجة".

[٤]

... آه جـــرس الباب؟.. هل نمت؟ من يكون الزائر الليلي؟! يستخدم أيضا يديه. من يكون؟ الأقدام المجهولة؟!. وفـــتحت الـــنور. التاسعة. تأخرت نصف ساعة. موعدها الثامنة والنصف. لم تأخرت؟!..

أتتـــبع لـــوحة الحـــائط كأني أراها للمرة الأولى: الخطوط ونسب الألوان: تبدو كحشرة غريبة تدنو من رقبة إنســـان لا يكلف نفسه مشقة الدفاع. فأسأل عن اللوحة. أين ومتـــى كـــان الاختيار؟ متى اشتريتها؟! لا أتذكر. لا يهم. المهم أنها موجودة وكفى..

أعـــود إلـــى التفكير في أصحاب الخطوات الرتيبة غيـــر المرئية. من يكون؟ من يكونون؟، فاشتعل في رأسي حلـــم الجمعية الحاد. فنظرت في الساعة: تأخرت، باهرة. لكنـــي رأيتهم ينظرون في صدر فستانها الأزرق المحبوك: ينظـــرون بحرية. تأخرت. آه لو يتعطل تفكيري إلى الأبد، لو أنام، لو أموت.. أعشق نهاية أشرف على تفاصيلها لأني

أرفـــض المصير المفاجئ. فاجأني الألم الحاد المعجز وأنا أسبح وسط الموج. كنتُ في كامل لياقتي البدنية.

تأخـــرت وأنا دائم الترقب. ويجب على "جودو" أن يكف عن ممارسة لعبة الانتظار المميت. السبت موعده بل الأحد، بل الاثنين، أيام الأسبوع السبعة، آه في أي يوم يأتي "جـــودو"؟ وفـــي أي يوم أتى؟ آه. المعجزة وحدها أريدها. المعجزة التي تدرأ عني هذا العذاب أو أتخلى فأصنع بيدي النهاية التي يتوقعون أن تحدث..

أظلـــم الحجـــرة، لأن غشـــاوة ماء حجبت الرؤية. أغمض عيني .. موجة وموجة من الصفير تلطم أذني وأنا مغمض العينين..

.. المفتاح يدور في الباب، أنصت إلى الصوت .. هل عادت؟ نعم. العطر المميز يسبقها إليّ. بلا ثياب دخلت وتمشـــت بالحجرة. اقتربت من الفراش ثم استلقت صامتة إلـــى جـــواري يتحداني جسدها الأسمر. لم أتحرك. استمع بـــإخلاص إلـــى حفيف نَفَسها: تتنفس بعمق ورتابة، فتحتُ

الأباجورة. ضمت ساقيها. لا حركة: نامت ... حولت إليها رأسي: كان الوجه بريئا وأملس. كان مكسوا بارتياح لم ألحظه منذ حادث السباق. نبع العرق من كل جسمي. غسلني. وكانت بطني منتفخة تدفعني بقسوة إلى الحمام.. هممت بطلب المعونة، لكني عدلت لما طالعني زنجي الحائط بابتسامة فهمتها بدت على شفتيه الغليظتين. دعوة إلى المحاورة! وأسقط الزنجي عينيه على اللوحة العالمية: كانت الحشرة ما تزال تدنو بتصميم من الرقبة الغافلة. فقمت إليه وخنقته وصحت فيه: يا زنجي إما أن تنطق أو تسكت، ضجت الحجَرة بصيحتي. توقعت من زوجتي النائمة أن تهبّ فزعة، لكن فتحت عينيها وقالت بتراخ وتكسر:

- نم يا .. عزيزي.
- فصرخت رافضا:
- لا.

ثــم تســـللت أصـــابعي إلـــيها .. تحسستها. ضلت أصـــابعي في تضاريس جسدها الممتلئ بغير رغبة. فاحت مـــنها بقايـــا عطـــر مجهول اختلط بعطرها المميز. أنفي مجرب، وأصابعي خبيرة تؤكد وجود بصمات غريبة على الجسد. وقالت بتراخ وتكسر.

- مالك يا عزيزي. لم لا تنام؟

جـــذبت رقبـــتها إلـــى بعنف. حكت عيونها نفورا معذبا.. حدثتني نفسي بأن أبصق. ثم صرخت فيها:

- أردت قتلي الليلة.

فتساءلت منكسرة متعجبة:

- أنا؟!.
- اختفيت مع الرجل الطويل الأنيق.
- أنا...؟!
- ورأيتك في أحضانه..
- مجنون مجنون ..
- ولابد من كسر رقبتك.

وضـــغطت عنقها وهي مستسلمة. ورطن الزنجي بعـــبارات غيـــر مفهـــومة تحثني على ارتكاب الجريمة، واصلتُ الضغط. لكن زوجتي جعلت تقاومني بقوة ومهارة. ثم انتبهت فجأة بصوت "فرملة" سيارة.. صحوتُ فلم أتمكن من الإجهاز عليها.

[٥]

سكت صوت محرك سيارة وقفت. يد فتحت الباب وأغلقته، يد ناعمة. زوجتي، هل عادت أخيرا؟. أقدام كثيرة تقطع المسافة إلى باب العمارة. يصعدون السلم ويصعدون كـــل يـــوم آلاف بل ملايين المرات. هل عادت زوجتي؟. وأنظـــر فـــي الساعة: الحادية عشر والربع. أسمع، أسمع، فأحســـب الزمن الذي تستغرقه زوجتي من موقف السيارة بجـــوار باب العمارة حتى باب الشقة حتى الفراش، أسمع. همـــسٌ وضـــحك وكـــلام غير مبين يواكب الأقدام المقبلة الصاعدة. أسمع..

مضت دقيقتان. ثلاث، أربع، خمس، ست، سبع .. لـــم يفتح باب الشقة بعد .. لم؟ السلم موطن الحركات غير المـــنظورة. من يشهد؟! من يدين؟!. لم؟ يوم، شهر، عام، دهر طويل. بطني منتفخة تستصرخني، آه.. الفراش يتبلل بإرادتـــي، يا زنجي: انطق أو أسكت. ولا ترحمني أسنان العجوز الصناعية بكلام في سمعي لا أفهمه. لقد كانت في الحفل الخيري ترفع حاجبيها كثيرا كقوادة محترفة .. لم لا تدخل زوجتي الآن حتى أستريح؟.

ودار المفتاح في الباب. أنصت لنقر الحذاء المدبب. الكعـــب عال. والفستان ضيق محشورة فيه حشرا. وها هو الـــنور يملأ الصالة. النقر المدبب يقبل ناحيتي. يدق بقسوة رأســـي. الخطـــوات المجهـــولة مازالـــت تغـــزو وحدتي وعجزي..

وغمـــر الـــنور الحجـــرة. زوجتي عادت متهللة، ضـــاحكة، لـــم تكن هكذا منذ ساعات. تحييني وهي تدندن بلحـــن غـــريب لـــم أسمعه من قبل. تقطعه تعتذر، تتحدث

وتــتحدث عــن برنامج الليلة الحافل .. ساقاي ساقاي، هل أفقد الأمل إلى الأبد؟!..

الأسنان تنطبق وتنفرج وتنطبق، يتجمع البصاق كله الآن على طرف لساني. كنت أمتلك القوة والإرادة، وها هم الآن من غيري يتحركون، كنت السباح الماهر، الآن انتظر "المفقــود" حتى يأتي، قال صوت رخيم: السبت موعده، بل الأحــد، بل الاثنين..بل، بل، وفي الصباح، في الظهر، في العصــر، في المساء، في الليل. وقال الصوت الرخيم: لقد جــاء. حدث ذلك بالأمس دون أن تراه، وأنا أقول: لم يعد يجــدي الكــلام، لم يعد يجدي سوى رصد أشباح الظلام، ومحرك السيارة، وتلك الأصوات المجهولة، وحركة الأقدام الغامضة..

متواليات وجه غير مرئي ..

متواليات وجه غير مرئي..

[١]

... "الخامسة" على المعصم .. في عيني .. جسورة تتحدى وخطيبتي عواطف لم تحضر بعد، أسعى باحثاً عبر المــوائد العاريــة مــن الرواد. أنغرس في المدخل الخالي أراقــب: عواطــف: جميلة سمراء .. أين هي؟ .. للحظة، للحظــات، لســنين وقرون: الحسرة، وخيبة أمل، ثم أرتد ببصري. أنحسر وأتراجع.

أعــود بعيني المفقوءة بالزمن المتحدي إلى مائدتي المعــزولة فــي الــركن الأقصى، أنكمش خائبا، وجزعا، ومقــتولا بالقلق: فلم تزل عواطف غائبة. أتوتر، أنقبض، أغضـــب.. ينشط محتدا، ومتسلطا في القلب شبح "القرار" يفقدنـــي توازني. ارتسم على فمها الصغير بقسوة بركان، قالــته ولــم تقله: حيّرتني عواطف .. تتخلى وتقبل. تتودد وتنفــر. تفــر وتعود، تروغني.. تحرضني لأمحو ميثاق العهد والدم.. تلح عواطف لتتحول إلى نارِ جنتي ..

.. الــزمن المتحدي الجاني يخبّ خببا، يتجاوزني. يتجاوز "الخامسة" .. يفقؤني مرة أخرى فيحترق في القلب الــدم. أرتعش وأعرق، البرودة والحرارة: أخاف وأرتعد. ربما تفي. ربما في الطريق الآن. ربما في مدخل الكازينو الآن، علــى الســلم تصــعد إليّ الآن، وربما ما زالت في المنــزل تتــزين، أو علــى السلم تهبط بخطواتها الواثقة، يســلمها إلــى الطــريق، ربمــا، ربمــا. وربما استبدلت "باقتراحــي" الــذي عرضت – قرارها الغريب. اختلطت بذهني ذكرى مؤلمة فاستسلمت لها:

"هــرعنا إلـــى الكازينو من وطأة الحر، والرؤوس المنكّسة. كان مذيع الراديو في المقهى المقابل يتحدث بكلام خطيــر. ذكـــر أن القــوات المســلحة تستعد لردّ العدوان ولتســترد الأرض مـــن أيــدي العدو. لابد من إزالة آثار العدوان، وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة...

وفاجأتني بعيون زائغة

– "لابد من الفراق".

سألتها عن السبب وأنا أشعر ببرودة وسخونة معاً.

فأجابت:

– "العقل يقول والناس"

ولما أبديت دهشتي، وتعجبي قالت:

– طريقنا ليس واحدا .... "

قلت:

"أنت تهذين"

فكررت:

– "العقل يقول والناس" ..

بدت الكلمات مختصرة، حادة، محملة بالشرر. بدت مفاجـئة وصـارمة. بـدت خطيـرة مثل خطورة "الورقة الصـغيرة"، المختصـرة التي أمرت بأن أنسلخ من المدينة لأكون "جنديا" أحتل مكانا في الصحراء في باطن الأرض، وعلى وجهها، لا تغمض لي عين، ولأطيع أوامرهم:

– "لا تغمض عينيك، لا تعترض .. لا تضحك. لا تبتسم. وكن يقظا ليل نهار ..

وقلت:

– "لم أتوقع منك هذا الكلام"

قالت:

– "ما قلته وراءه عقلي وعقول الناس"

وقلت:

– أحلامنا .. آمالنا، أنسيت؟

أجابت بحدة:

– "لابد من وضع نهاية لعلاقتنا".

فأجلستني على الفور فوق قنبلة مجهولة التوقيت، وكان مذيع الراديو لا يكف عن الثرثرة. واقترحتُ عليها أن يفكر كلانا بضعة أيام. غير أنها تكلمت بعيون خلت من الصفاء، أفصحت عن قرار فوري، صارم، وباتر. هكذا بسهولة انفجرت القنبلة الموقوتة. ويصرخ مراقب الموقع منذرا ومذعورا، يشير إلى ناحية الشرق، بينما توالت موجات الطائرات المهاجمة. سقطت قنابل عمياء قاتلة، فتشت في الذهن لحظتها عن وجه عواطف. لم أجده .. اندثرت بالانفجار الرهيب كل عناصر المدينة".

[٢]

.. دقات "الخامسة" في الساعة القديمة تتوسط حائط الصالة المشوّه. الساعة خارج حجرتي تحث الزمن المسرع المزعج. يتربع العجوزان – أبواي – على الأريكة البالية. يقعدان بلا ملل. يقعدان صامتين. أعرف وأرى. ولا حركة تأتي من خلف بابي المغلق. لا أسمع غير دقات

"البـــندول" "ترِكْ ترِكْ. ترِكْ ترِكْ وأنا مثبتة أمام صورتي الجاهــزة فـــي مرآتـــي، شاحبة وغاضبة. مرآتي عاكسة لفزعـــي. أغمض وأتراجع: ليست صورتي. ليست صورة الحسناء.

البندول "يلح" قارس وقاس " ترِكْ ترِكْ. ترِكْ ترِكْ. أســـند إلى الباب ظهري. البندول المتأرجح في الخارج ذو صـــوت مؤثـــر .. طرقات تتلاحق "ترك ترك ترك" فوق رأســـي المضروب. برأسي المهان رجلان .. في الكازينو الصيفي أحدهما.. رشدي السباعي. أعرف وأرى: يجالس المـــوائد، ينتظـــر. بحـــزن ينتظـــر. أعرف. بهمٍّ وعرض غـــامض ينتظـــر. أحفظ تفاصيل المكان وأذكر .. مكاننا، مكـــان لقائـــنا الأسبوعي منذ بدأ حبنا. الرواد المتحمسون والفاتـــرون. والعمـــال المهذبـــون .. يصطنعون الحركة والابتســـامة .. وصـــاحب الكازيـــنو الوسيم الباسم، بينما "الآخـــر" برأسي أيضا.. في سيارته، في مصعده، في شقته القصـــر يـــرقب رضـــاي، في صالونه الوثير، في "باره"

يدعوني إلى المشاركة، في ثيابه المعطرة ينتظر محرضا.. ينتظر بضحكة مشرقة، ينتظر بوجه داعر. الباب الموصد دائما يجب أن يفتحه أحد. أراه يفرد لي ذراعيه، ينتظوني الآن على رأس المخدع سيدا مرتفع القامة وأنا أرفض. ما زلت لم اضطر. ولكنهن – صديقاتي – يزرنني دائما بعطر مميز. الرائحة الواحدة المثيرة تسري وتشعل .. خبيثة وممتعة تهدد صلابتي. صديقاتي ماهرات. تزوجن جميعا. يحضرن إليَّ برائحة رجالهن. بينما صاحبي "غامض" يتحدث بلغة لا أحب أن أفهمها. يقول "الزمن" ويقول. "الحب والمعجزة" ويقول "الصبر والوفاء". ويقول .. ويقول: لا فائدة. أنا أرى الكلمات جوفاء ميته.. بلا معنى لطول ما سمعت:

"التقينا في أول إجازة له. كان قصير الشعر. كان شقيا. كان برادئه العسكري. كان بحذائه الغليظ. كان مجهدا. وكان العمال وصاحب الكازينو يطالعونه – هذه المرة – بغير وُدّ .. أنا رأيتهم. وقال وقال.. وكان لابد أن يقول:

- "عزيزتي. كما ترين، لم يبق إلا الانتظار"

فتساءلت:

- "إلى متى يا رشدي"؟.

أجاب:

- لنعتصم بحبنا، وصبرنا".

فقلت بفتور أواجه به حماسه:

- "إلى متى؟ إلى متى يا رشدي؟"

- الصبر. الصبر

فأردفتُ:

- "موقفي محرج للغاية"!.

وأضفت أكذب:

- "هناك من يطلبني .. إنهم كثيرون"

وقلت:

- "إني هكذا معلقة، وضائعة، هل تفهم؟"

وقال بيأس:

- "تذكرين أننا تعاهدنا".

وتقدمت مني يدُه. أمسكت يدي، شممت الصحراء وعرق الصحراء، وكانت يده خشنة وشقية. فسحبتُ يدي وتراجع هو. انكمش عاجزا، ضئيلا وقزما. لقد رأيته أقصر قامة من رجلي "الحر"، لقد حضر رجلي "الحر" بوجه قوي وغلاب. حضر فتيا ضخما. جسورا مديد القامة، كثير الكلام، غامض الفعل، وسمعت "الجندي" يعرض اقتراحه، ربما أكون قد قبلت، لكن هل كنت جادة؟!!".

[٣]

لـــم تـــأت بعد.! عواطف الجميلة السمراء لم تأت. الزمن المتحدي يزداد تحديا "بسادسته"، وفتاتي الغامضة لم تـــأت بعـــد !! الرواد يأتون. ينتشرون على المقاعد وراء مـــوائد الشـــراب والطعـــام، يصـــعّدون دخان سجائرهم، يضـــحكون ويتغامزون. الرجال والنساء. أين هموم اللحظة الشرسة؟! جعلوك "جنديا" ففرحت وتهللت. لكن ما لبث أن

حكمـــك القهر والضياع: ليس للمدينة وجود في ذاكرة من يقطنون الصحراء المنسية.

يـــوم أن عـــدتَ مـــن صحرائك العسكرية في أول إجازة قصيرة بعد غياب طويل أصابك الهم والكرب .. لم تـــرحب بك عيون ساكني المدينة، كأنك قادم من الفضاء، تملـــك وجهـــاً غيـــر مألوف!، حتى الأصدقاء، والأهل قد أنكـــرتك عـــيونهم، وازورّ عـــنك صاحب وعمال ورواد الكازينو .. لماذا؟!.

آه. عيناي على الرواد اللآهين، وعلى المدخل. عيناي على الطريق، أشعر باليأس للحظة، وللحظات، الزمن فقد هويته .. لكن لحظة "أمل" ما تلبث أن تجتاحك، فيتوارى للحظة شعورك باليأس: السنوات الأربع الماضية جمعتكما زميلين، وصديقين، وحبيبين قطعا العهد فاتفقا على أن تكون الحياة واحدة، غير أن لحظة الأمل سرعان ما تتلاشى: إنها ببساطة تريد أن تنزل على عنقك حد المقلصة. ماهرة .. ممن تعلمت؟! ممن تعلمت الخائنة

الجميلة؟ براءتك مصنوعة يا عواطف، وحياؤك كاذب، ولست ساذجة. آه .. "عزيزتي" هكذا بدون اسم. "عزيزتي" آه .. للمرة الثانية لابد من أن تنتهي علاقتنا لابد ! وأين كنتِ طوال السنين الماضية؟!. ناديتها. صحت فيها: أين كنتِ يا عزيزتي؟! وقالت: إنني مرغوبة ومطلوبة. وأبي وأمي عجوزان يرحبان بكل راغب وزائر. لم تعد تروق لهما: حقا؟!.

– "سيدي، سيدتي". ماذا حدث"

فقالا بنفس واحد:

– "لتكن عاقلا وواقعيا".

فصرخت فيهما

– "نحن نثق في المستقبل".

وقلت:

– "تفاهمنا على الانتظار والصبر".

قالا:

– "لتكن عاقلا وواقعيا"،

وقلت:

– "قولا كلمتكما"

فأجابا معا :

– قلنا، ونقول: لتكن عاقلا وواقعيا".

وكانا مقعدين، لم تعد تبصر العيون، ومر وقت على القلب، ورحلتُ من مكاني إلى صحرائي العسكرية المنسبة، أراقب هجوم الطائرات المغيرة..

وقلت لقائد الموقع:

– إلى متى يحكمنا العجز والهزيمة؟.

ضغطني الصمت. فهممت بالخروج. لكن قالا في نَفَس واحد أقعدني:

– "تغيرت الأحوال وأنت الآن بلا مستقبل".

وقلت للقائد:

– "إننا نموت، بينما الآخرون لا يحبون أن يعرفوا".

وقلت للعجوزين الضريرين:

– "أنا أضمن لكما حبا يفوق التصور"

وقالا معا:

- "لا فائدة، ولا جدوى من المحاولة. فأنت بلا مستقبل".

وصرخت في قائدي:

- لن انتظر حتى أقتل في مكاني.

فقال محذرا:

- "التهور غير مرغوب هنا، وعليك أن تكف. فقط التزم بالأوامر الصادرة إليك"

فتعلمت الانتظار، والصبر، وتبادل القدمين في المكان الواحد الثابت، ومحلك سر"..

وتساءلت: متى تأتي اللحظة الموعودة لإزالة هذا الواقع الأليم؟.

[٤]

البـــيت القديم تبعدني خطاي عنه. الشمس الصفراء مزعجة .. أشد إزعاجا من البيت القديم. تدفعني "الشمس"، "والخطـــوات" فأســـرع علـــى حافة الطريق. أنا أتجه إلى الكازيـــنو الصيفي، فلماذا وقد قررت التخلي عن "الجندي"

المغـــوار؟. مـــا الذي يشدني إليك يا رشدي وأنت غامض وأجوف الكلمات؟. لا فائدة يا عزيزي المسكين. أنا مرتدة، وأســـتحق كل لعنة ووصف رديء. لكن هل فكرت لحظة في صديقاتي الآتي يغظنني برائحة الزواج؟ هل فكرت في "الشـــاحنة" التي أدبرت بك "جنديا" وسط الجنود، وتركتني وحـــيدة فـــي عرض الشارع؟ لم تعد بي طاقة تحمل على الصـــبر، الليل طويل على زوجة بلا زوج. واليوم يجري بســـرعة الصـــاروخ فيما لو عدتَ يا بطلي المغوار. وكل شيء يهون لو كانوا يشاركونك مشاعرك ...

ها هو الكازينو يخطف بصري. تجلس كالعادة بجوار النافذة العلوية منفردا بلا أحد. عيناك عليّ. قلبي يدق مثلما دق يوم الهزيمة المرّة،"كان يوم الاثنين العدوان". كان رهيبا، وكان قتلا، وهروبا وهزيمة ولم يكن مجرد نكسة كما زعموا. وكنت قبل "الاثنين الرديء" رائعا. ولكنك في اليوم التالي، كنتَ غريبا يتكلم بأشياء غريبة. غربت عنك الروعة. قلتَ: إن الكارثة قد حلت ولا مفر من

مواجهة الحقيقة. كنتَ مرعبا وأنت تقرأ لي مستقبل الأيام. عزيزتي، عزيزتي .. ورحتَ تحشو أذني بكلمات غريبة لم أعتد سماعها: "التضحية – النضال – الصبر – الانتظار – الأمل – الاحتلال – الكارثة – النصر. قلت لي: كنا هتافا، وزيفا، وعسفا، وقسرا وعمى، وكلمات كاذبة تُحكم علينا الحصار..

ها أنت رغم كل شيء ما زلت تنتظر لتتحدث بنفس الكلمات القديمة. حقا إن العجوزين رضيا بك، باركاك ذات يوم. ولكنك لم تعد تروق لهما، فأنت مغلول ومسلسل. شجعا "الحر"، لكن قلبي يرفض، مثلما يرفضك. أنت تتكلم يا رشدي وهو يتكلم. أنت تعد ورفعت الجمل يعد .. ولقد سئمت كل "كلام" و "وعد". لابد من ذلك "الشخص" المجهول الذي بالقطع لا أعرفه:

"ذهبت إلى "الحُرّ" بقدمي. كنت يائسة. استقبلني رفعت الجمل فاتحا ذراعيه على رأس المخدع. وأنا عذراء. قابلني أحمر الوجه والعينين والشفتين. قابلني

بعطره و "سكره". قال، وقال، وقال. كلام جديد غريب أراد أن يتآمر عليّ. ماذا يبقى لدي لو استجبت؟! ...

أردتُ وأنا أسمعه ذلك الغريب المجهول. نشدتُه، تخايل لي بوجه ضبابي، شدّد "رفعت الجمل" من حصاره يريد أن "يغتالني" ماذا يبقى لي بعد السقوط؟! تراجعتُ فأقدم، قاومتُ فأصر. هربتُ فطارد. دفعته ونجوت ... أرادني خليلة، أمَةً وذليلة، بكيت ولم يسمع أحد. لعنت وجهي أبوي: لقد أمراني بأن أخضع. عاجزان، وضريران، وأصمان، وأخرسان، لعنت تأرجح البندول على حائطنا القديم الممزق المشوّه. لعنتك صارخة يا جندي. لعنت العبد. لعنتك يا رشدي ولكن لم يسمع أحد، ولم تسمع مدينتي. لكن رجلي المجهول أجاب .. لكن من تحت الأنقاض .. كرهتك يا جندي، وكرهت "الحُر".

[٥]

.. ها هي تقبل برزانة واتزان.. تقبل بخطوات بطيئة. أرتجف، لكن تقف دون أن تنظر ناحيتي. الرواد

يتطلعون .. تكاثروا .. العمال المتأنقون كفوا عن الحركة يتابعون "الفتاة" تستأنف السير البطيء تجاهي بعيون تتجاهلني. بوجه جامد خال من المعنى. قَرَّرَتْ! تتوقف والنظرة المتجاهلة تثير السخونة، والعرق، والبرودة، توترن طبول القلب.

هاهي تستدير عائدة إلى المدخل. تهبط أولى الدرجات فيغيب نصف الظهر. يغيب العنق، يغيب الرأس. غادرت فتاتُك التي لم تعد جميلة .. تولَّتْ عنك .. تولت وأنكرتك وجوه المدينة، الرواد يشمتون والعمال. وعليك أن تطير الآن إلى موقعك، في صحرائك المنسية، تسمع وتطيع وتتابع بصبر أو قهر صواعق الطائرات المغيرة. وجِّه للفضاء قذائفك طائشة أو صائبة، ولكن الغارات لن تتوقف. سوف يستمرون، الموت كامن في كل لحظة تمر بك، ولن ترحمك مدينتك "سالما" أو "مقتولا". وسواء خطبت أو سكت. صرخت أو همست. ضحكت أو بكيت، فلن تتوقف حركة الغزاة. ولن تهب من غفلتها مدينتك .. ولم يبق أمامك إلا أن تواصل المهمة في موقع صحرائك المنسية ..

[٦]

اه، ها أنت تجلس يا جندي تنتظر، لكني لا أحب أن أراك، أنـــا عمـــياء. هل أسرع إليك لتؤذيني كلماتك؟. أنا ضـــجرة، ســئمت الحديث المكرر، والمثاليات المستحيلة. قفـــي. قـــــ - فـــــ - ي - ي - ، أسمع صوت "الرجل" المجهـــول صاحب الوجه الضبابي. لكني أتحرك ضريرة نحـــو "الجـــندي". قـــــ - فـــــ - ي - ي - ي. يوقفني الصـــوت. أرتـــد إلى "صوتي" الوحيد. فهو المنقذ والأمل. وهـــو السفر إلى مدينة أراها في واقعي وأحلامي. أتراجع، وأســـتدير. أتحول عنك يا جندي إلى وجه رجلي الضبابي. وانتظـــر أنـــت، انتظـــر حتـــى الحشر، انتظرهم يقتلونك، ويذبحـــونك، انتظـــرهم يبعثرونك أشلاء، ويريقونك دماءً، وينتهكون فيك البطل المغوار، ستكون بطلا رسميا: إقليميا، أو حتـــى قوميا. لكني لا انتظرك، كما لن أسعى إلى الوغد "الحُر"، ومحال أن أرجع إلى عجوزيّ المُقعدين الضريرين الأخرســـين الأصمين : أنا اتبع الآن رجلي الضبابي الذي أعرفه ...

صدى الجريمة ...



صدى الجريمة ..

[١]

.. مكــتب المحقق يتوسط الغرفة المضاءة بالنيون الباهر، المحقق منكب على ورقة بيضاء خالية يخطط فيها بقلمــه الأسود الأنيق، يخطط بخطوط حائرة .. على يمينه الضـــابط المظفــر الــذي اعتقلني، تعلو كتفيه نجوم أربع، وترتســم على الوجه ابتسامة صفراء باهتة، وخلفه جنوده الــثلاثة بشــرائطهم المتفاوتة وابتساماتهم الصفراء، بينما ينتظــر الكاتــب الكلمات التالية بعد أن فرغ من تسجيل ما أدليت به:

الســـن؟ العمـــل؟ محل الإقامة؟ الحالة الاجتماعية؟.

مســـتعد – الكاتب – ولكن بابتسامة مماثلة: صفراء باهتة ومعادية .. كيف أضمن سلامة التحقيق؟

المحقـــق مهـــذب، وهادئ ولكنه غامض، أنا أمامه غيـــر مصــــدق، قلـــق ومتوتر، يتوقف عن التخطيط برهة ويرفع رأسه، يتفحصني – طويلا – بنظرة ثاقبة ثم يطرق، ليعاود التخطيط على الورقة البيضاء الخالية من أية كلمة، فـــأزداد توترا ليندفع في الأذنين صفير حاد لقطار قادم .. أفكر فيما حدث .. في صور غريبة تلاحقت سريعة رعناء متشابكة: الجسد المطعون في الفراش الدموي، التليفون في صـــوت الســـيارة بوق مميز، في الضابط المختال والجنود حضـــروا فاتحين: اقتحموا .. حاصروا .. أنا الذي اتصل بكـــم .. كبلونـــي. أنا الذي أبلغ .. تجاهلوني .. أنا صديق قـــديم. تحولـــوا وحرزوا واتصلوا، فجاء آخرون بالملابس المدنـــية، وجاء طبيب. أجرى الكشف الطبي. قلبوا الجسد

المطعون .. قلبوه جميعا. قلبوا صديقي القديم.. نجم السينما المشهور: عادل السّمري، ثم قادوني ..

يـــدا المحقـــق تكـــف عـــن التخطيط فجأة .. يسأل بشراسة متخليا عن غموضه:

- خالد مرجان.. ما سبب تواجدك في شقة المجني عليه؟

آه .. أعلـــن عـــن نفسه. انجاب الغموض وبدأ الهم يتملكنـــي. الصفير القديم للقطار العتيق القادم يقبل من بعيد وأنا مكبل .. مرمي على الخطين المتوازيين:

- كنا على موعد ..
- لماذا؟ .. لماذا؟

بصراخ عدواني .. أتردد لحظة لأفكر في الحصار المحكـــم بالجهـــات الست الموصدة الصماء، وبمشاعركم العدائية.

- لماذا؟ .. لماذا؟ ... أجب.

الصوت الصارخ محمل بصفعات الغضب: ملّح. لا مفــر مــن التوضيح. ولكن الحال لا تمضي في صالحك، ومــن الخطــأ الاستمرار دون محام. ولكن الإدلاء بالسبب ضروري في مواجهة السؤال القائم.

– لنحتفل بإنهاء خلاف قديم.

وعلــيّ أن أندم لما بدر: كلمة "الخلاف" يسجلها قلم المحقــق الغاضب على الورقة التي لم تعد خالية. "الكلمة" مــدخل إلى متاعب صارت محتملة الكشف. تفتح بيدك بابا مــا كــان يجــب الآن أن يفتح. سوف يولّدون السؤال من الســؤال لتتكاثر الأسئلة المعذبة المحاصرة. لابد من محام لــتكون الأقــوال مــوجهة. الإجابات الغبية تثير وتشكّك الدائرة، تكشف عن المستور..

المحقق يبتسم بعينيه الخبيرتين المدربتين، فيعاودني الصفير القادم. أضع أذني فوق الشريطين الباردين أنصت للجلبة الرهيبة القادمة.

– معلوماتنا أن القتيل لم يكن له خصوم غيرك.

- سيدي: اعترفت بالخلاف ولكن لم أفعل.
- كنت وحدك في مكان الحادث.
- سيدي: لن أتكلم إلا في حضور محام.
- فيما بعد، أجب الآن عن أسئلتي.
- لا تنس أنني الذي أبلغت عن الجريمة.
- لا تنس بصماتك.
- سيدي: يجب أن يحضر المحامي.
- وخلافكما مشهور ومشهود. هل أذكّرك؟
- سيدي: أنت تتهمني .. هل أنا متهم؟ هل أنا متهم؟ .. هل أنا ...

المحقق يعود إلى الصمت والغموض. ينظر في الورقة التي لم تعد خالية. القلم الأسود الأنيق مارس العمل. ألحظ كتابة غير واضحة .. الضابط يفرك يديه في شماتة وظفر. أقدام جنوده خلفي تضطرب .... الكاتب يتنهد .. يضغط بقلمه الكلمات المملاة ..

يرســم الجمــيع ابتســامة واحدة، وتراقبني العيون بمعنـــى واحد: "الإدانة". كيف أطمئن إلى سلامة التحقيق؟ كــيف؟ أخاف .. أرتجف. العرق البارد ثم العرق البارد. وتسخن الآذان بالصفير داخلهما يقترب، فأرتعد على برودة القضيبين المتوازيين..

.. أتــبلّل بالماء تدفعه كل فتحاتي فأشعر بالجفاف: انقطع الماء عن الشجر. انقطع، أحتاج إلى من يتكلم .. أين المهــرب؟ المنجــي؟ أيــن المحامي يسمع فيتولى المهمة؟ العجــلات الوحشية تدنو أكثر مني جسدا مرمياً بفعل فاعل لا أجهله ..

أتهاوى أمامهم، أسقط، سقط الرجل من النافذة بفعل فاعــل لا أجهلــه. أسقط تحت ابتسامتهم الواحدة وعيونهم الواحدة تحت أنوار النيون تظلم، بينما تطبق عليّ تشابكات الصــمت والظــلام والوجــوه المرتقبة وصخب العجلات الحتمية:

تمزّق جسد رجل تعرض للضرب والرمي من باب عربة القطار. كانت خالية. فلم يشعر أحد.. وجاء صديقي عادل السّمري يمشي بفخر النجوم رغم ما حدث .. وجاءت وفاء بوجه حزين وتذكرت موعدنا الأول الذي تعاتبنا فيه:

"بعث إليّ برسول مهذب، طلب أن نتقابل كي نصفّي خصومة عشر سنوات. أعطيت الرسول المهذب موافقة فورية... تعانقنا في مقهى "سبأ" أمام كل الرواد .. من يعرفنا ومن يجهلنا .. انتحينا في ركننا القديم نحتسي قهوتين تبرع بهما صاحب المقهى العجوز، تبرع وهو البخيل تحية لتصالح النجمين .. وأخبرني صديقي القديم اللدود أن لقاءنا قد تأخر، تأخر كثيرا فعاتبته على استماعه للوشاة .. عاتبني بدوره على استماعي للوشاة .. وقلت في نفسي: متى يحدثني عنها؟. لقد كان

ذكيا فذكر أن – شقيقته وفاء – ترمّلت بعد أقل مـــن عـــام. ذبح زوجها ومزق بعجلات قطار عائد من الإسكندرية، سقط. شاهد قال إنه رأي بجوار الباب المفتوح رجلا من ظهره ما لبث أن اختفـــى. قيد الحادث ضد مجهول، أظهرت اســـتيائي وقلت في نفسي: إنني كنت في رحلة فنية خارج الحدود، وقال صديقي القديم، نحن نجمـــان نتـــربع علـــى قمة النجومية، ولم نعد بحاجة إلى الإنصات إلى أقوال الوشاة، وقال.. وقال.. كلمات، مفعمة بحرارة الرغبة في فتح صـــفحة جديدة.. : الآن علينا أن نلتقى ونصم الآذان عـــن أقـــوال الوشاة. وافقت من فوري صـــديقي القـــديم، لكن سألته عيناي عن وفاء التـــي حرمنـــي مـــنها رغم الحب، ومباركة الأســـرتين! وكان ذكيا فأجاب بصوت معتذر صـــدقته: علينا يا صديقي أن نصحح أكثر من

خطـــأ. اضطربت وقلت في نفسي: هل يمكن أن يصــــحح الخطأ؟ ثم قمنا وتصافحنا وتعانقنا علــى بــاب المقهــى أمـــام العجوز ورواده المعجبـــين. وقـــال في أذني: في عاشرة الغد انتظـــرك في بيتي لنعاود الكلام.. وافقت من فـــوري صديقي القديم. وبعد أن مضى كل منا إلـــى سيارته، انطلقت أنا بلا خطة في شوارع المدينة .. لا أرى غير وجه جميلتي الأرملة، والجســـد المذبـــوح الممزق بعجلات قطار قد سقط بفعل فاعل لا أجهله .."

[٢]

.. المحقـــق يـــرتفع في فراغ الغرفة، يصرخ أمرا بصـــوت أجـــش، يأمـــر بالرد على سؤال ملح .. لا أفهم، تتلاقى نظراتنا المتعاكسة، يحاصرون بشفاه تدين، يصرون علـــى انتزاع كلمة تريحهم ليغلقوا المحضر فينام "الفرسان" أو يموتـــون .. "الاعتـــراف". أنزوى واهنا وقويا، أتحدث

بصـــوت لا يخـــرج. يتحقق الزهو والارتفاع والاختيال لو اعتـــرفت .. هيهات .. أنا وأنتم في زنزانة واحدة بجهات ست موصدة في وطأة زمن لا ينمو.

– لا فائدة من المراوغة.

عاد إلى الصراخ فأجزع وأقول:

– سيدي: هل أعترف بجرم لم أقترفه؟

– كل الأدلة ضدك، كل الأدلة ضددددك.

الجلـــبة الرهيبة لا تتوقف، الحديد يصطك بالحديد، والنظـــرات المحتجة المتهمة تقرأ من "قرار" فوري مدفون في سابع أرض .. تنبش قبرا في "جب" مغلق بألف سقف، و ...

تكســـر نظراتهم المتهمة عيني .. تقهرني .. أسحب احتجاجـــي، أنسحب .. أنزوي في قبر الجب المغلق واهنا غيـــر قوي. أهرب إليهم .. إلى أحذيتهم اللامعة. أطمع في تثبيت المعنى المعاكس..

– لن أتكلم إلا أمام محام..

نهـــض ضاربا سطح المكتب، اهتزت الأشياء كلها فوق سطح المكتب .. أسمع طرقات قطار الليل العائد فوق الشـــريطين .. الصــــدى .. يزحف نوم أو عجز أو موت. أنظر في وجوه الفاتحين ينتظرون الإشارة الأخيرة .. أسيخ فـــي باطن الأرض في الجب في القبر تحت طرقات الليل اللعينة.

– يُحبس المتهم على ذمة التحقيق.

تتوالـــى الطرقات حادة مصممة، تقترب العجلات، تحمـــل الصفير المهاجم .. أرتد إليه: يأمر بأيام .. أترنح.. يأمر بشهور، يأمر بسنين، يأمر بمدى الحياة، فتقبل القاطرة الرهيبة وحشا لتدوس وتمزق في ليل أسود بمئات العجلات جسما سقط في الظلمة بيد غير مجهولة.. و

أقـــع واعـــيا، تتسابق الأيدي شرهة ضائقة غاضبة مدججـــة بالبنادق والرماح والسيوف، تضعني على الخطين المتوازيين في طريق الخطر الوحشي .. كومة لحم عاجزة يعد يوم حافل بالعداء .. و

السيارة تجري من دار التحقيق إلى جهة غير معلومة، أنا معصوب العينين .. أعمى داخل السيارة التي غادرت دار التحقيق إلى جهة غير معلومة، أنا والفرسان المسلحون في زنزانة السيارة المغلقة..

أختنق في الصندوق المحكم، أحتاج إلى هواء وماء ومحام، أرغب في ابتعاد الجند المسلحين؛ يحاصرونني بعرق أجسادهم، وأنفاسهم في زنزانة السيارة تنطلق بنا إلى جهة غير معلومة.

أتجشأ .. أضرب سد الأجسام فينهرون، أحتج وأصيح فيضربون بالأحذية والبنادق، تدوسني سنابك الخيل .. أموت. أصمت فرقا من ضجة الحديد الغازية المتزنة الرتيبة ونحن في سيارة التحقيق تمضي إلى جهة غير معلومة ضجرت .. ثم وجدتني أتذكر الموعد المشئوم:

"أوصلني المصعد إلى الطابق العاشر .. قصدت الشقة رقم (٤٠). طالعني اسمه الثنائي محفورا على لافتة نحاسية لامعة: عادل السّمري. مشهور، بابي أيضا مصدّر

بنحاســة مماثلة: خالد مرجان. كلانا "نجم" سينمائي يتربع علــى قمــة النجومــية، نحن مشهوران، دور الفتى الأول مقصور مقصور علينا، العدد: ثلاثون فيلما .. وامتدت يدي إلى زر الجرس.. لاحظت الباب مواربا، ضغطت ضغطة واحــدة .. عبرت لحظة ولحظة ولحظات، لا أحد يجيبني. دفعــت الــباب ودخلت .. صفقت وناديت .. كانت الصالة ذات أضــواء خافتة موزعة على الأركان .. كانت معطرة وساكنة.

وقفــت فــي المنتصف وأنا أعاود النداء بالصوت والــيدين .. تناهــى إلــيّ أنين صادر من حجرة في نهاية الممــر .. صــفّر القطــار الجــامح ذو الضجة العالية .. أحسســت بضرورة التراجع فورا لكن لم أفعل، بل أنكرت إحساســي وعجــبت. فزعت إلى الحجرة في نهاية الممر، كــان الباب مفتوحا، تقدمت .. جف الدم، انقطع الماء عن الشــجر .. في كامل ملابسه الرسمية تمدد عادل السّمرى في فراشه مطعونا بسكين لا تزال في صدره .. الدم أحمر

قـــان برائحة فيتامين تمتزج بعطر النجوم .. زادت ضجة القطار العالية، هرعت إلى صديقي القديم مذعوراً مرتجفاً، نزعت السكين، كان يئن، تبللت يداي بالدم الأحمر القاني، تـــبللت ملابسي. بُلت .. آه .. شممت أكثر ذلك المزيج من رائحــــة الفيتامـــين وعطـــر النجوم، وشممت بولي .. أراد الكـــلام، اقتـــربت من فيه، سألته من، من، من؟؟؟، فأجاب بشـــفاه لا تخرج صوتا فلم أسمع. سمعت فقط هدير قطار الليل العائد يمزق الجسد الساقط تحت العجلات بفعل فاعل لا أجهله. وقفزت إلى التليفون وأبلغت، حضر ناس وحضر الطبـــيب، اقتادونـــي بخشـــونة وعـــنف. توسطت الرجال المســـلحين، تذكـــرت إحســـاس التراجع والهرب، تذكرت إنكـــاري وعجبي، هرب دمي وأنا وسط الرجال المسلحين، بينما رأيت مئات العجلات الحديدية تدوس الجسد المطروح علـــى المتوازيـــين الحديدين الباردين بفعل فاعل لا يمكن نسيانه .."

[٣]

.. الدقات الثلاث بيد الرئيس تعلن عن فتح الجلسة، يعلـو الـرئيس والعضـوين - ميزانٌ تمسكه أصابع الفتاة النحاسية المعصوبة العينين.. تعلو اللافتة ذات الخط البارز العـريض آية: (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل). أراقـب من وراء القضبان القضاة الموقرين والفتاة العمياء والآية الحاسمة.

أغمـض عيني فأسمع طبل القلب في هدير الحديد يعـود، العجـلات لا تتوقف .. أفتح عيني على يد الرئيس تشـير إلـى الادعـاء، فينهض ويتكلم ويسأل الشهود، ثم يتوعد. اضطرب ولكن بدون مقاومة.

صوت الادعاء يفصّل ثم يطلب "الإعدام" ... آه ... الإعدام؟ عقوبة القاتل الإعدام، عقوبة الإعدام عقوبة القاتل، عقوبة القاتل الإعدام، عقوبة الإعدام .. إعداااام.

الادعاء يصمت فأصحو متوقفا عن لعبة فك الجملة وتحويـرها، أرى القاضي يأذن للدفاع فيقف ويتكلم ويسأل

الشـــهود ثـــم يبرئ .. ثم يفصل .. أشرد عنه ضاحكا في نفســـي .. لا أتحمـــس للمتابعة، أجلس وأدير بصري لأول مرة في صفوف الحاضرين أفحصهم .. الرجال والنساء.. مَن أعرف ومن أجهل ..

أنهض بلدغة عقرب، ففي الصف الثاني تجلس وفاء بثوب الحداد، ناظرة تجاهي بجمود، لكنها ترسل إليّ معنى واحدا أفهمه، ترتدي السواد، أتأملها. تحول وجهها الجميل الحزين عني دون أن يتراجع المعنى الواحد الذي أفهمه..

أعود إلى المحامي وهو يدلل بأدلة لا أفهمها، أذكر بشدة وأفهم "إدانة" الادعاء .. أهمّ أيضا بفك جملة المحامي يطلب البراءة: "أطلب البراءة لموكلي" لكن القلب امتنع عن فـــك الجملـــة وتحويـــرها. تضخم بالألم، بنظرة وفاء ذات المعنى الواحد الذي أفهمه..

أطـــرق واعيا وأنا أذكر تماما قول صديقي القديم: "يجـــب أن نصحح أكثر من خطأ"، ثم أرفع رأسي لمتابعة وجـــه وفاء تتوسط الصف الثاني، لكن سرعان ما تذكرت

مشـــهدا جمعني بها ذات يوم عاصف مفعم بمشاعر التوتّر والغضب:

-"قالت غاضبة:

- إن الخـــلاف مســـتحكم، ولا يمكنني تحدّي إرادة الأسرة.

قلت:

- لست قاصرا، وأنا في انتظارك.

قالت:

- يهددني أخي لو لم أتزوج من اختاره.

قلت:

- لن أسمح بأن يسلبك أحد، ولن أغفر لأخيك ولمن يتزوجك.

قالت:

- لا يمكن أن أسهم في دمار أخي.

غضبت وقلت:

وأنا؟ ألم تفكري في احتمال دماري؟.

قالت:

- يمكن أن يظل الحب بلا زواج.

قلت:

- هــراء، لــن استسلم، سأزيح من طريقي كل من يعترضني حتى بعد زواجك.

قالت:

الحكمة مطلوبة الآن وفي المستقبل.

قلت بصوت حاسم:

- "الوسط" كله يعرف، واسمي لا يسمح بالهزيمة.

قالت:

- ستورطك حماقتك، ولن تحصل على شيء ..

افترقنا على "خلاف"، "تظاهرنا" كلّ في طريق، ولم أنــس طيلة عام كامل نظرات الشامتين .. وقد وقع حادث القطار وأنا في رحلة فنية خارج الحدود .. وحينما نشرت الصــحف نــبأ عودتي جاءت وفاء .. جاءت أرملة بثياب الحداد ولم يجيء بالطبع شقيقها – صديقي القديم ..

قالت:

– لن أتكلم، ولن أشهد، ولكني لن أسمح لك ..

كانت حاسمة وغاضبة، غامضة كارهة، خشيتها .. وافترقنا. "تظاهرنا" كلّ في طريق. اندفعت بسيارتي في طرقات المدينة بلا هدف، لا أسمع ولا أرى سوى هدير قطار الليل العائد تمزق عجلاتُه الجسد الساقط بيد غير مجهولة".

[٤]

... الادعاء والدفاع والشهود والحاضرون والقضاة والفتاة العمياء تحت الآية الحاسمة .. أشعر بقلبي ثقيلا في صدري .. تشتجر فيه كلمات وصور رديئة، تشتجر وتتقاطع وتتوازى وتتداخل .. آه .. أرغب في نوم طويل.. هبط النجم .. البراءة والإدانة، هبطت كل النجوم.. آه .. أرغب في العدم ..

أنظر من العدم بعيون مرهقة إلى أشياء القاعة وإلى الحاضرين، أنظر إلى وفاء: التي أحببت .. أراها وأنا

المعدوم تحدجني بصراحة واتزان بمعنى واحد واحد واحد لا يتغيـــر.. أفهمه. ترتدي وفاء حدادا فوق حداد .. هزت رأسها ونهضت، سحبت عينيها فنهضتُ، مضت إلى الباب بثبات ومازالت الجلسة قائمة منعقدة .. خرجت وغابت .. هجمـــت القاطـــرة الليلـــية، هاجمت بالخطر، شلت الأقدام وانســـربت الحياة .. تهاويت تحت هدير القاطرة الوحشية تذبح وتمزق .. أغيب وأنا أرى أكثر من أي وقت مضى، أغيب وأنا وحدي الذي يعرف الرجل المجهول..

غـــايـة..



غايــة

[١]

لفحتنـــي نسمات خريف السادسة وأنا أعبر الجسر القصـــير. الممـــتدّ من شاطئ النهر إلى باب العوامة. أمام الــباب قــرأت في اللافتة الرمادية كلمتين بحروف فضية بــارزة: "عــوامة غايــة" ... حضرت في الموعد المحدّد حســب اتفاقـــي مع غاية صباح اليوم: "قالت في التليفون بصوت يشوبه التوتر:

– التليفون لا يكفي .. ضروري نتقابل ونتكلم.

تساءلت:

- ماذا حدث؟

قالت بصوت منكسر:

- أنا حزينة وقلبي مقهور.

فقلت غاضباً:

- لابد إذن من المواجهة.

أضافت:

- تسابق الأوغاد وسعوا إلى التجريح.

قلت وقلبي مملوء بالغيظ:

- الإهمال أقوى ردّ عليهم.

عقبت بصوت مشوب بالوهن والاستسلام:

- موعدنا السادسة مساء اليوم بالعوامة، قبل الندوة."

ضغطت جرس الباب الرمادي. فتحت بعد لحظات السيدة الهندية. حسنة المظهر يفوح منها عطر هندي. مديرة العوامة. يعاونها أربعة هنود. رجلان وسيدتان. أعرفها وتعرفني. سبقتني بخطا رشيقة متزنة إلى الصالون

الفسيح المخصص لندوة الأربعاء الأسبوعية .. ببابه الواسع لافتة مكتوب عليها: "صالون الأربعاء".

أضاءت المديرة الهندية النجفة الكبيرة ذات الأذرع العشرة. سقطت أضواؤها الباهرة فوق صفوف المقاعد الجلدية الزرقاء. مريحة. ستون تقريبا. يشغلها الرواد القدامى والجدد. "صالون الأربعاء" ملتقى الفكر والإبداع. لا يعرف أحد متى بدأ نشاطه الأسبوعي؟ وكيف؟ وإلى أي دولة تنتمي صاحبته الجميلة؟. ربما ترددت لدى البعض أسئلة من هذا النوع، ولكن سرعان ما تقل أهميتها كلما ظهرت تتحدث وتدير وتناقش في ندوات الصالون.

مضـــيت نحـــو مقعد بالصف الأول. جلست مقابل صورة نصفية كبيرة لغاية أكبر من حجمها الطبيعي، معلقة بالجدار الأبيض تعلو منصة التقديم. انصرفت الهندية بشبه ابتســـامة ســـاحبة خلفهـــا عطـــرها الهـــندي لتخبر غاية بحضـــوري. تحرص الهندية على استقبالي ولا تتخلف عن وداعـــي كلما اتجهتُ إلى باب الخروج من العوامة. جعلت

أتأمل الصورة التي تواجهني. وجه مستدير وعينان واسعتان، وفم مبتسم وأنف شامخ. وشعر أسود منسدل طويل، بعضه يعلو الكتف الأيمن. خفق قلبي بمشاعر غامضة. أمعنتُ النظر ودققتُ. انثالت صور على بصري، وتوالت أصوات بأذني، وتعطر فضاء الصالون بروائح زكية انداحت في نفسي، وعلت الصور والأصوات والروائح صورةٌ لغاية تحتفي بي في أول لقاء:

"عرّفني صديقي شكري المغربي بغاية قبيل ندوة من ندوات صالون الأربعاء. متى كان هذا التعارف؟ لا يهم. ولا أحب أن أحصي عدد السنين التي مرت عليه. ما يعنيني هو "اللحظة الفريدة" التي تم فيها التعارف .. كانت لحظة رائعة، عامرة بالانجذاب والحنين المتبادل. تدفق من قلبي فيض من مشاعر الارتياح والاطمئنان. غمرني الفيض وشكري المغربي يقدمني بقوله: "ناجي زهران مهندس معماري، وشاعر مقلّ". رأيت في عينيها العسليتين بريقا أسرني وهي تسمع بعض شعري. ثم أسرعت

وقدمتني في بداية الندوة للحاضرين بحماس أخجلني .. ألقيت بعض قصائدي. صفقتْ وصفق البعض فسعدت وانتشيت. ولم أغضب حين امتنع البعض عن التصفيق .. استبْقَتْنا غاية بعد انتهاء الندوة. أثنت بتعاطف شديد على القصائد التي ألقيتها. وشكرتها بتعاطف أشد على دقة نظراتها وحُسْن ظنها فيما قلت من قصائد. وتمنيت أن يطول هذا اللقاء البديع الذي أشعرني أنه لا يوجد بالعوامة سوانا، وأن الحياة خلت تماما من البشر رغم وجود شكري، وبعض الرواد، والمعاونين في العوامة .. أهديتها نسخة من ديواني الأول (المحاق)، وأهدتني نسخة من ديوانها الجديد (رحاب الآفاق). امتلأ قلبي بسعادة غامرة وأنا أغادر العوامة بصحبة شكري المغربي .. وفي طريق الكورنيش فاجأني شكري بقوله وهو يستوقفني مشيرا إلى العوامة الرمادية: "الجميع واقع في هواها، ولا أحد يعرف لمن ستهب قلبها العنيد". لم أفكر كثيراً في قوله. ودّعتُه ومضيت أنعم بفيض سعادتي - إلى مسكني بجزيرة

الروضة. ورغم خلوّه من أي أحد أحسست أنه مأهول، وأنني السعيد الوحيد في الجزيرة، بل في المدينة، بل في العالم كله."

سحبتُ بصري من الصورة الكبيرة. نهضَتْ بإيقاع خطـوات غايـة. ثابـتة. يسبقها عطرها المميز. تصافحنا بسـرعة. حيّتنـي بصـوت حنون وإن شابته نغمة أسى. جلست في مقعد مجاور. تبادلنا كلمات قليلة، قالت بصوت خفيض:

– انزعجت كثيراً مما سمعته.

تأملت وجهها القمري وقلت:

– لا تتأثري: مجرد غيرة وحسد.

قالت بوجوم:

– أسـاءوا إلـيّ بكلامهـم. لم أكن أتوقع أن يكونوا بهذه الوقاحة.

صمت قليلاً ثم استأنفت:

- نحـن صـديقان. وأنا لا أتخلى بسهولة عن صلة بريئة أحب أن تستمر.

أبديت لها - على رغمي - استعدادي للانسحاب والاختفاء وقلت:

- أرحل دون عودة لو كان في رحيلي حلاً للمشكلة.

ردّت غاضبة:

- بل يجب المواجهة وإلا صدق الآخرون ما قاله الوشاة.

صمتت قليلا ثم قالت:

- استغلوا جهري بإيماني بك. ولكن لن أخضع للابتزاز.

فسارعت إلى القول:

- الحـل فـي إعـلان "خطوبتـنا" دون تأجيل والتعجيل بالزواج.

بدا وقع الاقتراح "غريبا" علينا. كلانا أصابه الوجوم. فهذه هي المرة الأولى التي يتردد فيها كلام عن الخطوبة والزواج. شملنا سكون ثقيل تنامت خلاله في قلبي دفقة حنين إلى حياة زوجية تجمعنا. فكم حدثني قلبي بأنها

ملاذي واستقراري رغم ما ألاحظه عليها أحيانا من غموض لا يكشف عما بداخلها من مشاعر، فأصاب بحيرة سرعان ما تزول بإقبالها عليّ وعنايتها بي ورعايتها لي بابتسامة مشرقة تختصّني بها دون غيري من الرواد الذين يتابعونا بشعورين مختلفين: فبعضهم يبارك عاطفتنا النبيلة، والآخرون يغارون وينقمون .. وبخاصة حين تكون حريصة على إشراكي في كل ندوة شعرية، ومتحفزة دائما للدفاع تصدّ كلّ من يحاول النيل مني أثناء إبدائي ملاحظة هنا أو هناك...

انتبهتُ من أفكاري المتزاحمة على خطوات المديرة الهـــندية تـــتقدم شابين، أحدهما رشيق وسيم، والآخر بدين مقـــبول الملامـــح .. نهضت غاية بهمة ونشاط واستقبلت الإثنين بحفاوة وترحاب ... ثم اندمجت مع الرشيق الوسيم فـــي حـــديث جانبي لا أكاد أسمعه . خفق قلبي وتلاحقت أنفاسي عندما رأيتها منصتة إليه إلى درجة الشغف. أهداها فـــيما بدا كتابا لم أتبين عنوانه، وأهدته ديوانها الذي أعرف

عــنوانه. وحين رأتني "غاية" أهم بالانصراف تحولت عنه لبرهة طالبة بقائي. ولكن لم أستجب، لأن عينيهما أفصحتا عــن معنـــى غامض أشعرني بأنها لن تمانع في مغادرتي المكـــان والصـــالون والعــوامة. فتذكــرت تحذير شكري المغربي لي: "الجميع واقع في هواها، ولا أحد يعرف لمن ستهب قلبها العنيد". انتفضت وتضايقتُ. وحين شرعتُ في التحـــرك حانـــت مني التفاتة إلى صورة غاية. ولاحظت بـــركن الجـــدار الأبيض خيوطاً لعنكبوت تهتز بصراع مع كـــائن غير مرئي ... لاحظت الخيوط تمتد باتجاه الإطار الذهبـــي للصـــورة الكبيرة. شعرت بوهن شديد. ورأيتني أنهـــض وأغادر الصالون والعوامة التي بدأت تستقبل رواد الـــندوة. لم يشعر بانصرافي أحد. ولا كانت المديرة الهندية في وداعي هذه المرة!

[٢]

اســـتقبلني هواءُ الكورنيش البارد .. خال من مشاة قادمين أو عابرين، ليس بالكورنيش سواي. فأخذت أستمع

إلــى وقــع خطواتي البطيئة. تمنيت أن يكون الآن شكري المغربــي بصــحبتي ليســمع هواجسي التي تنمو وتتكاثر بســرعة شديدة. مشيت بإزاء الشاطئ زمنا غير قصير بلا هــدف سوى الاستماع إلى هواجسي. تثور بنفسي مع تقدم اللــيل أسئلة صاخبة: لماذا أسرعت بمغادرة العوامة دون تحــية غاية؟، ومن يكون الشاب الذي استأثر باهتمامك يا غايــة؟، ولمــاذا غضبت من الوشاة بينما خصصت الوافد الجديــد بالعــناية والشــغف؟!،هل تم أخيرا ترويض قلبك العنــيد؟، وفــيم احــتفاظك بمعنــى التخلي هذه السنوات العديدة؟، وكيف أمكنني أن لا أفهمك يا غاية إلا هذا المساء الــرهيب؟، وهل استدعائي إلى العوامة كان بقصد اشهادي على غرامك الجديد يا غاية؟، وكيف هانت عليك مشاعرنا النبيلة؟ ...

و... توقفت عن السير عند آخر عمود إضاءة خافتة. رأيتُ أنني تجاوزتُ المناطق السكنية بمسافة بعيدة، وأن فراغا أسود ممتداً يطل على شاطئ موحش بلا

كورنيش .. جفلتُ من الظلام الموحش وسواد ماء النهر تسقط عليه آخر إضاءة خافتة. استدرْت لأعود وأنا أشعر بآلام شديدة في قدمي. وفجأة لاحت سيارة تقبل نحوي. أبطأ السائق ثم توقف تحت الضوء الخافت. السيارة بيضاء طويلة عريضة. أنزل السائق زجاج السيارة الأيمن المجاور له. أشار إليّ. دعاني إلى الركوب. لم أنظر إلى الجالس في الخلف. فلم أتبين ما إذا كان رجلا أو امرأة. قبلت دعوة السائق، فلم أجد ما يحول دون قبولها ...

حين اقتربت من السيارة مادّا يدي إلى مقبض الباب أدار السائق المحرّك وأسرع بها مغادرا المكان تجاه الظلام الثقيل. قبل أن يبتلعها الظلام أبصرت الجانب الأيمن من وجه الجالس في المقعد الخلفي كان الوجه لامرأة تشبه غاية. وتساءلت هل هو لغاية؟ أم لأخرى تشبهها؟. لم يستمر تساؤلي، فسرعان ما انشغلت بعابرين وقادمين برزوا فجأة أمامي بمحاذاة الكورنيش، ومع ذلك خالطت فكري صورة الوجه في السيارة البيضاء تمضي بسرعة

نحــو الظـــلام .. أحسست برغبة عارمة في الوصول إلى مسكني. أشرت لسيارة تاكسي، فأقلتْني إلى شارع المقياس بالجزيرة.

[٣]

واجهني مسكني الخالي بصمت ثقيل. لا يعيش فيه سواي. عندما ضغطت مفاتيح النور سقطت إضاءات صفراء على أثاث الصالة، والممر، وحجرة النوم. هرعت إلى سريري وتمددت بملابسي. تأملت الضوء الأصفر الخافت الذي يغمر الحجرة. انقبضت نفسي فأغمضت عيني. فتحتهما على ركن الجدار المواجه القريب من النافذة.. أرى خيوط عنكبوت تصارع حشرة غير مرئية. تذكرت صورة غاية بإطارها الذهبي تتصدر الصالون. تذكرت غاية. فكرت في النظرة الغامضة، التي تسببت في مغادرتي. رأيت يد الشاب الجديد تمتد نحوها بكتابه الذي لا أعرف عنوانه، ورأيت يد غاية تمتد إليه بكتابها الذي

أعرف عنوانه. ورأيتني أخرج من الصالون دون أن يستبقيني أحد. بينما تخلفت عن وداعي المديرة الهندية!

عـدت إلـى متابعة الصراع بالركن المواجه حتى مللـت. نهضـت وأسرعت إلى المنفضة الطويلة لأسحق العنكـبوت وأنهي الصراع الدائر أمامي. عرف العنكبوت قـراري. سارع بالهرب. اختفى .. لا أدري أين؟ فرجعت إلى فراشي ضيق الصدر. نمت بملابسي ولم أخلع حذائي..

[٤]

..رأيتنـي أنهـض من فراشي قبل الفجر وأغادر المسـكن الأصـفر. مشـيت أقطع شوارع الجزيرة تحت أضواء خافتة صفراء تسقطها مصابيح الأعمدة. فكرت في زيارة شكري بشارع النخيل لأتخفف من همّي. يصغى إليّ شكري دائماً ويفهمني .. اقتربت من مسكنه بحوالي عشرة أمتار. لكنني قبل أن أصل إلى باب العمارة استدرت عادلاً عـن زيارتـه. وشاهدتُني أسعى إلى طريق الشاطئ بقلب مـتوثب وفكـر متحفز. فكرت في أن أقابل غاية؛ برأسي

بركان أسئلة. أريد إجابات يا غاية. رأسي البركاني يوشك على الانفجار يا غاية.

هـا هــو النهر المتلألئ بأضواء الإعلانات المطلة علــيه. لــم يطلع النهار بعد. وها هو الكورنيش الحجري الذي شاهد مسيرى إلى العوامة منذ عشر سنوات يمتد في صمت. وهذه خطواتي تقربني من العوامة التي بالقطع لن أطــرق بابهــا في هذا الوقت .. لم يحدث قط أن حاولت. نــزّهت غايــة عن أي تصرف يثير الشك والريب. بلغت الموضع الذي يواجه العوامة.

أصابتني هزة عنيفة لأنني لا أرى الجسر الصغير ولا العوامة الرمادية. فتشت بعينين زائغتين، وأحاسيس متوجسة.. فلم أجد: اختفي الجسر وليس للعوامة أثر. تساءلت بصوت واهن غير مصدّق لعيني: أين الجسر والعوامة؟. ثم صحت في سكون الليل الذي ردّد صوتي: أين عوامة غاية؟. ثم أصابني الهلع والرعب لما رأيت فندقا صغيراً أنيقا أمامه حرّاس أمن، وسيارات تحتل مكان

بداية الجسر الصغير، ويطل على حيز الماء الذي كانت تشغله العوامة. وسمعت صوتي يدوّي بما يشبه الصراخ: أين العوامة؟. أين غاااااية؟. وقلت لنفسي: كانت العوامة هنا منذ ساعات ولم يكن فندق ولا حرّاس ولا سيارات.

غـــادرت المكان وأنا مفعم بأحاسيس الدهشة والهلع والقهــر. ابتعدتُ قليلا ولم يكن وقت الفجر قد حلّ بعد .. تـــوقفت عــن السير وجلست فوق مقعد حجري يطل على ظـــلام النهــر المرصّع بأضواء الإعلانات الملوّنة. جعلتُ أتأمــل مـــا حدث في وقت تواصل فيه ظلام ثقيل عجزت الأضواء الصفراء عن تبديده ..

انتـــبهت علـــى صوت فرملة سيارة وقفت خلفي .. صكّ الصوت أذني. التفت فرأيت السيارة الطويلة العريضة البيضـــاء. وبمجرد أن نهضت انطلق بها السائق مسرعاً. وحـــل مكانها "شكري" الذي اندفع نحوي بابتسامة غامضة. تقدمت تجاهه وأمسكت بيده. هززتها صائحا فيه:

- شكري .. أين الجسر؟ أين العوامة يا شكري؟ أين ...؟

فقاطعني متسائلا:

- أي جسر؟! وأية عوامة؟!

فأجبت بدهشة واستغراب:

- جسر عوامة غاية.

فأجاب بسرعة:

- ومن تكون غاية؟!

صحت فيه بانفعال:

- غاية - العوامة - الصالون - الندوة - الأربعاء - الرّواد - الأصوات؟!

قاطعني بلهجة حاسمة:

- عن أي شيء تسأل؟

فبادرت واهنا:

- أسألك عن غاية.

فكرّر سؤاله:

- ومن تكون غاية؟!

فســحبته من يده دون مقاومة منه، وأسرعت به إلى مكــان العوامة فرأينا معاً: الفندق الصغير الأنيق يقف ببابه حــرّاس، وســيارات تجـ وتروح، وتدنو وتبتعد، تقف وتتحرك. فقلت له:

– أرأيت؟! صدقت كلامي؟!

فقال بهدوء وبصوت رخيم:

– الفندق مقام منذ عشر سنوات.

– كيف؟!

وأضاف وكأنه لم يسمع سؤالي.

– أنســيت أنــك المهندس الذي وضعت رسومه سد

وأشرفت على بنائه، وحضرتُ معك حفل افتتا

وحين سألته عن غاية أجاب بهدوء وحزم:

– لم أسمع أبدا بهذا الاسم إلا منك.

ولما وجدني غير مصدق، أضاف قائلا:

– ومن الخير أن تغادر هذا المكان. هات يدك

أرسـلت بصـري آسفا إلى الفندق الأنيق، وتابعت حـراس أمنه يتحركون أمام أبوابه .. وأبصرتُ يد شكري تمتد إليّ، فاستجبت. مشينا وأنا ممسك بيده حتى اقتربنا من إشـارة مـرور خضراء قبل مدخل كوبري قصر العيني.. وفجـأة رأيـت السيارة العريضة الطويلة البيضاء. رأيتها تهدّئ من سرعتها ثم توقفت للحظات امتثالا لأمر الإشارة التـي احمـرّت. فأتاح توقفها لي فرصة النظر إلى المقعد الخلفـي. كانت تجلس فيه أنثى ترتدي قبعة زرقاء. تلاقت عيوننا. أعرفها وتعرفني. كانت غاية ..

عندما تقدمتُ لأجعل شكري ينظر معي – اكتشفت أنـه لـيس بجانبي وأن يدي تقبض على لا شيء .. وحين هممـتُ بالاقتـراب مـن الـنافذة اخضرّت الإشارة آمرة بالتحـرك والسير، فانطلقت السيارة مغادرة المكان بسرعة الصاروخ. بينما رأيتني أجري بتصمم ومثابرة خلف سيارة بيضاء ذات لوحة معدنية خالية من الأرقام.!

الفهرس

كتب أخرى للمؤلف

أ- القصص:

- **الجـــرح:** مجمـــوعة قصصـــية طبعة (٢) مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٩١.
- **الكلام:** مجموعة قصصية طبعة (٢) مكتبة الآداب – القاهرة ١٩٩١.

ب- الكتب:

- **فـــن القصـــة القصـــيرة عند نجيب محفوظ:** طبعة (٢) مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٨٨.
- **قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم:** طبعة (١) مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٨٨.
- **تـــذوق الفـــن الشـــعري في الموروث النقدي والبلاغي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٨٩.
- **مقايـــيس الحكـــم الموجـــز في الموروث النقدي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٩١.
- **الخطـــاب النفسي في النقد العربي القديم:** طبعة (٢) مكتبة الآداب – القاهرة – ٢٠٠١.
- **فاعلـــية التعاقب في الشعر العربي الحديث:** طبعة (١) مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٩٥.
- **جدلـــية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر:** طبعة (٢) مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٩٩.
- **الصنعة الفنية في التراث النقدي:** طبعة (١) مركز الحضارة العربية – القاهرة – ١٩٩٩.

- **طاقــات الشــعر فــي التراث النقدي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٩٩.
- **نظــرية الإبداع الشعري عند النواجي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية – القاهرة – ٢٠٠٠.
- **إحكام النص الشعري في التراث النقدي والبلاغي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية – القاهرة – ٢٠٠١.
- **تحلــيل الــنص الأدبي:** دراسات في الأجناس الأدبية (بالاشتراك مع د.عــزة الغــنام، ود. الزهراء بدوي) طبعة (١) الأنجلو المصرية – القاهرة – ٢٠٠١
- **تجليات الإبداع الأدبي:** طبعة (١) مكتبة الآداب – القاهرة – ٢٠٠٢.
- **أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق:** طبعة (١) مكتبة الآداب – القاهرة – ٢٠٠٣.
- **الفــنون البيانــية والبديعية بين النظرية والتطبيق:** طبعة (١) مكتبة الآداب – القاهرة – ٢٠٠٣.
- **الشعر العربي في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي:** مكتبة الأنجلو المصرية – طبعة (١) – القاهرة – ٢٠٠٣.
- **النثــر الفني في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي:** مكتبة الأنجلو المصرية طبعة (١) – القاهرة – ٢٠٠٣.
- **البنيات الكاشفة عند نجيب محفوظ:** دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦ – الأنجلو المصرية القاهرة – ٢٠٠٤.
- **مــرايا التجلــي: رؤى نقدية كاشفة** – مكتبة الأنجلو المصرية. طبعة (١) – القاهرة – ٢٠٠٥.
- **فــيض القلــم: مقالات في الثقافة والأدب** – مكتبة الأنجلو المصرية. طبعة (١) – القاهرة – ٢٠٠٥.